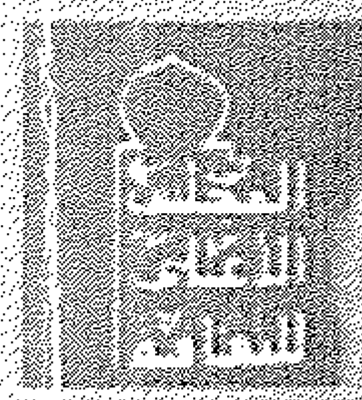
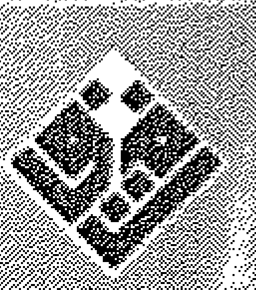




المشروع القومي للترجمة

جابرييل جارثيا ماركيث

حكاية غريق

ترجمة: عبد الظاهر عبد الله

225

اهداءات ٢٠٠١

المهندس/ محمد عبد السلام العمري

الإسكندرية

المشروع القومى للترجمة

حكايـة غريـق

تأليف

جابرييل جارثيا ماركيث

ترجمة وتقديم

السيد عبد الظاهر عبد الله



٢٠٠٠

GABRIEL GARCIA MARQUEZ

RELATO DE UN NAUFRAGO

مقدمة بقلم المترجم

القصة المعاصرة فى أمريكا اللاتينية:

حول هذه الفترة الهامة من فترات تطور القصة فى دول أمـريكا اللاتينيـة، والغاية الجديدة التى تنشدها بعيدا عن دور التبعية وخدمة الأوضاع القائمة يقول ماريو بارجاس يوسا: "لقد بدأت القصة تتحرر من محليتها، من اهتمامها فقط بكل ما هو أمـريكى – لاتينى، لقد تحررت بالفعل من هذه التبعية، فنراها تـتخلى عـن مهمـتها كخادمـة فى محراب الواقع المعيش، وأصبحت فى الوقت الراهن تسلط أضواءها على الواقع لتستمد منه موضوعات معينة لعرضها على الرأى العام، وبذلك مهدت تغيير الوضع القائم".

وبالفعل، فقد بدأت القصة فى أمريكا اللاتينية فى العصر الحديث، باعتبارها أقوى الأجناس الأدبية تأثيرا وانتشارا، تلعب دورا هامـا فى حياة الشعوب، فقد أصبحت تعبر، وبقوة، عن الرغـبة فـى الـتمرد والعصيان والتطلع إلى الحرية والعدل والمسـاواة، ولقـد ظهرت روح التمرد هذه على أيدى الكتاب الطليعيين فى فترة العشرينيات من هذا القرن، مما أحدث ردود فعـل ضـد المفاهيم السائدة على الساحة الأدبية من قبل مثل "الواقعـية" و"الواقع". كما كانت تعبر عن مفاهيم ضيقة أفرزت أخيرا أعمالا أدبية موجزة عبّر الكاتب من خلالها عن اهتمامه

بوصف ما هو قائم فى الحياة الواقعية دون التطرق إلى جوهره وحقيقـته. وقد أجمع النقاد على أن الواقعية كمذهب أدبى ساد قـبل فترة العشرينيات فى جنبات القارة قد أهمل جانب التحديد فـى موضـوعاته، وتجنـب التكثيف والتركيز، وهى من أهم عناصر العمل الأدبى الرفيع. وعليه فقد أصبح على الكتّاب أن يطرحوا هذا المنهج جانبا ويتأهبوا لاستقبال صيغ أدبية جديدة، وأن يتمـتعوا بروح خلاقه، وأن يستخدموا فى كتاباتهم أساليب وتقنيات جديدة للغاية.

وفـى هذا المجال الذى نزعت فيه قارة أمريكا اللاتينية إلى التبديد نرى أن الأرجنتين، وبخاصة مدينة بوينس أيريس، قـد حملت الشرارة الأولى لهذه النزعة التجديدية، وعلى وجه الـتحديد خلال فترة العشرينيات، وفى تلك الأثناء، وخاصة فى عـام ١٩٢١ عاد الكاتب خورخى لويس بورخيس إلى بوينس أيـريس قادمـا من أوروبا، وقد أعرب يومئذ عن أسفه الشديد لحالة الجدب الثقافى التى سيطرت على الواقع فى البلاد، ورغم هـذا كلـه، فقد كانت المدينة مهيأة بصفة عامة لتبدأ مشوارها بخطى واسعة صوب كل ما هو جديد؛ الجديد الذى من شأنه أن يـبعدها عن الموروثات القديمة بقدر ما يقربها من كل ما هو تقدمى وطليعى.

وقـد أدى مـثل هذا الجو المشحون بالتفاؤل والتطلع إلى التغيـير واسـتقطاب كل ما هو جديد إلى أن يعبر المثقفون فى

بوينس أيريس عن افتخارهم بأن بلدهم سيكون خلال فترة العشرينيات المركز الذى تنطلق منه ثقافة العالم أجمع، ورغم أن هذا الزعم كان يفتقر إلى أرضية صلبة يرتكز عليها، إلا أنه قد أوضح بصراحة مدى الاهتمام الذى أبداه الكتاب بالتغيير والتجديد، وأبان عن تطلعهم إلى عصر الحداثة وما يأتى به، ولهذا فقد أقام مثقفو الأرجنتين ثقافتهم على أسس مغايرة تمامًا لتلك التى أقام المكسيكيون ومثقفو بيرو ثقافتهم عليها. ففى هذه الدول أقام المثقفون ثقافتهم على أساس من الموروثات القديمة، أما فى بوينس أيريس فقد تأسست الثقافة على دعائم قائمة على نظرة مستقبلية، ومسطرّة بأسلوب ذاتى يفصح تماما عن هويتهم، وإلى جانب هذا كله فقد أصبحت المدينة مركزا لاتجاهات عديدة ومتشابكة؛ فهناك الروس والإيطاليون والبولنديون الذين قدموا إلى البلاد جريا وراء أوهام اليوتوبيا، وأصبح الوضع الاجتماعى يحوى عنصرين لا سبيل إلى التقارب بينهما: رعاة البقر ومربوا الماشية، طبقة اجتماعية مميزة، حازت من المال الكثير، وأصبحت تعيث فى الأرض فسادا، وتبذر الأموال، وحتى غدت شهرتها تجوب الآفاق الأمريكية والأوروبية على حد سواء، وعلى الجانب الآخر عاش الوافدون - والمهاجرون الذين دأبوا على كتابة أشعارهم باللهجة الخاصة بمدينة بوينس أيريس والمعروفة باسم "اللونفردو"، كما كان من عاداتهم رقص التانجو وإحياء الليالى الحمراء بالمدينة.

وبهـذا كلــه، فقـد أصبحت بوينس أيريس مدينة تتمتع بوضـع خـاص بيـن دول أمريكا الجنوبية، فقد أثرت الحياة الثقافـية فـيها عـن طريق الندوات والمناظرات الأدبية، كما أسـهمت بعـض المجلات فى إثراء هذه الحياة الثقافية، فكان بعضـها يغلـب علـيه الطـابع التعليمى الجاد، حيث تخاطب جمهـورا تمـتع بمستوى متدنٍ من الثقافة، وأما البعض الآخر فكـان ذا طـابع طليعى تقدمىٍ، يمتلئ بالمقالات النقدية حول الحـياة الأدبـية الجديدة التى كانت تشهدها أوروبا، وكثيرا ما تمـيزت هـذه المجـلات بطابع ساخر وهجائى، حيث كانت تخاطب فى معظم كتاباتها تجمعات سياسية صغيرة، ووسط هذا الجـو الطليعى والنزعة التجديدية فى مجال كتابة القصة برز كـتاب كثـيرون مـن بينهم: أوليبريو خيروندو، وماثيدرنيو فيرنانديـث، وخورخـى لويـس بورخـيس، ومـيجل أنخل أستورياس، وخوان رولفو، وخوان كارلوس أونيتى، وجابرييل جارثيا ماركيث.

جابرييل جارثيا ماركيث (حياته وأعماله):

ولـد جابريـيل جارثـيا ماركيث فى مدينة أراكاتاكا[١] بكولومبيا[٢] فى السادس من مارس عام ١٩٢٨، وبعد أن فرغ من دراسته بالمرحلة الثانوية التحق بجامعة كولومبيا الوطنية، ثم تخصص فى دراسة الصحافة والآداب، وخلال فترة دراسته بالجامعـة شـارك بالكتابة لبعض الصحف اليومية ردحا من

الزمـــن، توصل بعده للتعاقد مع جريدة الإســـــبكتادور[٣] التى كانـــت تصدر فى مدينة بوجوتا[٤] ليصبح واحدا من الصحفيين المعتمــــــدين لديها؛ وفى تلك الأثناء قام بنشر روايته "الورقة الذابلة" La hojarasca فى صحيفة الهيرالدو التى تصدر بمدينة بارانكـــيا، وكتـــب مجموعة من التقارير الصحفية، ونقد بعض الـــروايات التى قدمت للسينما. يبرز من بينها العمل الذى بين أيديـــنا الآن، والـــذى أثـــار ضـــجة كبيرة اضطرت صحيفة الإســـبكتادور علـــى أثرها أن ترسل جابرييل جارثيا ماركيث كمراسل لها فى أوربا.

وخـــلال عمله كمراسل للصحيفة فى أوروبا أنجز عملا بعـــنوان: "الكورونـــيل لا يجد من يكتب له" عام ١٩٥٦، وفى العـــام الـــتالى انـــتهى به المقام فى المكسيك، وبعد عامين من وصـــوله الأراضـــى المكسيكية قام بنشر عملين هما: الساعة المشـــئومة، وجـــنازة الأم الكبرى. وفى عام ١٩٦٧ قام بنشر عمله ذائع الصيت، والذى ترجم إلى العديد من اللغات الأجنبية ومـــنها العربـــية وهـــو: "مائة عام من العزلة" Cien anos de soledad، ثـــم عمـــل: "خـــريف الـــبطريارك" El otono del Patriarca. وقـــد حصل جابرييل جارثيا ماركيث على جوائز أدبـــية وصحفية عديدة مثل: جائزة روميلو جاييجوس فى عام ١٩٧٢ وفـــى عـــام ١٩٨١ حصل ماركيث على جائزة نوبل العالمية للآداب.

ومن بين الأعمال التى كتبها ماركيث يبرز: مائة عام من

العــزلة، حقــق هذا العمل شهرة كبيرة بين الناطقين بالإسبانية وغــيرها، حيث ترجم إلى العديد من اللغات العالمية ومن بينها العربــية. ويــدور موضوع الرواية حول هجرة بعض الأفراد لمحــل إقامــتهم وميلادهم إلى مكان جديد يجعلون منه مقرهم وملاذهــم الأخــير. إسابيل وخوسيه أركاديو بونيديا هما بطلا القصة يعتزمان الزواج، إلا أنهما يتخوفان من أن يسفر الزواج عن ذرية من المخلوقات الوحشية، وعليه يقرران هجر المدينة التى ولدا فيها إلى مكان لا يصل إليه أحد من الناس ليؤسسا فيه قرية جديدة هى "ماكوندو" التى عاشت منذ ميلادها على هامش الــتاريخ، وفــى بــراءة تامــة ترجع إلى الإحساس بالخطيئة الإنسانية الأولى.

وبعــد مرور سنوات طويلة يبدأ أول احتكاك بين القرية وبيــن العالم الخارجى؛ حيث تفد إليها مجموعة من الغجر فى زيارة لها تحت إمرة زعيمهم "ميلكيادس"، الذى عمل على بث روح الــثورة والحــركة القومــية بعد طول ثبات، فأوعز إلى خوسيه أركاديو بأن يكرس حياته ليحوز المعارف العلمية للعالم الخــارجى، ممــا جعل أحفاده يولدون ولديهم ولع شديد بتدمير الــذات مــن أجل عمل شئ ما، ومن أجل كسر الحواجز التى تقــابلهم، أما النساء فقد شغلن بحالات الميلاد والوفاة والمنازل والأكفان.

لــم تدم عزلة قرية ماكوندو طويلاً عن العالم الخارجى،

وبدأت تأخذ حظها من ميراث التقدم والحضارة والتطور، وهنا يظهـر علـى ساحتها أحد القضاة، وبعد حين تدخل القرية فى حـرب أهلية، ثم تشهد إنشاء خطوط للسكك الحديدية، وتأسيس شركة يقوم على رئاستها أناس غرباء، تعلن حالات الإضراب عن العمل، وينجم عنها مصرع عدد هائل من العمال فى مذبحة رهيـبة، وفى النهاية تهب ريح عاتية أتت على كل صرح قد شـيد فجعلـته كالرميم، وهنا تنسحب الشركة المذكورة وتترك القرية مرة أخرى تعانى وحدتها وعزلتها.

مـن خـلال هـذه الحبكة الأدبية وهذا السرد القصصى الموحـى يتبيـن لنا أن الكاتب يحاول تصوير الأوضاع التى كانـت سـائدة علـى سـاحة أمريكا اللاتينية وصراعها ضد الإسـتعمار، فـلا يخفى على القارئ هنا أن قرية ماكوندو تعد رمزا للقارة بأكملها - تلك القارة التى كانت تعيش فى عزلتها لا يكدر حياتها أحد - وأن وصول أحد القضاة إلى القرية إنما يرمـز إلـى الاستعمار الذى عانت من ويلاته كل دول القارة؛ حيـث حـول الغزاة البلاد إلى منشآت تخدم أغراضهم وتحقق أطمـاعهم، فجمعـوا من وراء ذلك كله ثروات طائلة ضمنت الرفاهـية لشـعوبهم والذل والهوان لشعوب الدول المستعمرة، وبعد أن نهبوا كل الثروات وأصبح المقام لا يطيب لهم بالقارة، هدمـوا كـل شـئ، وتـركوا البلاد أطلالا يابسة تعانى الفقر والحـرمان. إن الـرواية فـى مجملها كما - رأينا - تصور المـراحل الـثلاث التى مرت بها القارة، وهى: مرحلة العزلة

الأولـــى، والتى سبقت وصول الاستعمار إلى القارة، ثم مرحلة التطور والتقدم، وأخيرا مرحلة ظهور الاستعمار الجديد.

ومـــن بيـــن الأعمـــال الهامة التى أفرزها فكر جارثيا ماركيـــث يبرز عمل آخر بعنوان "الكورونيل لا يجد من يكتب لـــه"، وفيه يعود شبح العزلة ليخيم على الحبكة القصصية مرة أخـــرى؛ فـــنرى بطل الرواية الذى يعمل ضابطا بالجيش يمر بحياة مليئة بالمشاكل والمصاعب التى لا تنتهى، ولكنه لم يرفع راية الاستسلام قط أمام هذا السيل الجارف من الآلام، ولم يجد أمامه سوى أن يلقى بنفسه فى غياهب عزلة رهيبة، حيث فضل أن يعـــيش وحـــيدا علـــى أن تهدر كرامته وإنسانيته. اشترك الكولونيل فى الحرب الأهلية، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ظـــل ينـــتظر المعاش المقرر له لسنوات طويلة: خمسة عشر عاما. بدأ يتردد على مكتب البريد التابع له، وفى كل مرة يعود إلى منزله حيران أسفا يجر أذيال الخيبة والندامة، فقد الأمل فى تحقـــيق حلمه الذى طال انتظاره، ولم يعد أمامه من أمل سوى ابـــنه الوحيد أجوستين، إلا أن ذلك الأمل سرعان ماتلاشى هو الآخـــر، فقـــد حكم على ابنه بالإعدام رميًا بالرصاص لاتهامه بـــتوزيع منشـــورات عدائية. وفتش الرجل فى جعبته عن أمل آخـــر يتعلق به، ويمد إليه بأسباب الحياة، فلم يجد سوى الديك الـــذى كان يعده للمناوشة، وهو أمل مقضى عليه بالفناء أيضا؛ حيـــث لـــم يكن فى وسع الكورونيل أن يفى بحاجة الديك من الطعـــام والشراب، وإذا ما كان ذلك كله غير كاف، فقد وقعت

المدينة التى يسكنها الكورونيل فى أيدى غرمائه السياسيين، مما ضيّق عليه الخناق أكثر وأكثر، ولم يجد بدًا من أن يفرض على نفســه العــزلة باعتــبارها الوســيلة الوحــيدة لصون كرامته وإنســانيته، وكذلك فإن الديك قد بدأ يسلك نفس طريق صاحبه فــى العــزلة المؤدية إلى الكرامة، فيقرر أنه لن يعرض نفسه للبــيع أيــا كان الثمن وأيا كانت الحياة التى سيحياها، وتنتهى الــرواية بضــياع كل الآمال التى طال انتظار الكورونيل لها، ونراه يموت وهو يتضوّر جوعًا حفاظا على كرامته وإنسانيته.

مازالــت العــزلة تطــل علينا من عالم جابرييل جارثيا ماركيث باعتبارها وسيلة للدفاع والذود عن الكرامة، فأصبحت تمــثل قاســمًا مشتركا بين أعمال الكاتب؛ ففى عمله: "الورقة الذابلة "يصور لنا شخصية طبيب يعيش وحيدا معتزا بنفسه، إلا أنــه لا يتصــالح قــط مع المجتمع الذى يعيش فيه، فهو دائم التشــكك فــى كل ما يدور حوله، شخص غامض، يصل إلى مدينة صغيرة، ويمارس مهنة الطب، ثم يكتشف تناقص زبائنه شــيئا فشــيئا! حتى لا يقصده أحد لتوقيع الكشف الطبى عليه، ويكتشــف فــى النهاية أن ذلك الأمر راجع إلى وصول شركة طبــية مزودة بمجموعة هائلة من الأطباء يتعاملون مع أحدث الأجهزة. وهنا يفرض الطبيب على نفسه عزلة اختيارية، فيبتعد عــن مجــتمع المدينة بالكامل. وبعد أن تترك الشركة المدينة، يــرفض الطبيب معالجة جرحى الحرب الأهلية، فيتم استبعاده إلــى مكان آخر، يظل الحقد يلازم الطبيب إلى ما بعد الموت.

وهنا نرى أن ماركيث يحاول فى معظم كتاباته أن يسلط الأضواء على الفرد وأصالته وسط مجتمع ظالم لا يرحم، وهذه تقنية تتكرر فى كتابات أخرى له مثل: قيلولة الثلاثاء، وخريف البطريارك.

حول "حكاية غريق":

يمكن للقارئ أن يستشف مجمل هذه الحكاية من خلال النظر إلى عنوانها:

فهى حكاية غريق أمضى عشرة أيام عائمًا على متن زورق، دون طعام أو شراب، ونصِّب بطلا قوميا، ثم تهاوت عليه قبلات ملكات الجمال فأصبح ثريا بفضل ما قام بتصويره من إعلانات، وفى النهاية أصبح مكروها من قبل الحكومة، ثم طوته ستائر النسيان إلى الأبد. ورغم بلاغة العنوان، إلا أنه لا يفصح عن جزئيات وتفاصيل الموضوع، حيث يحوى وراءه قصة شائكة لثمانية من البحارين العاملين على متن المدمرة كالداس التابعة لسلاح البحرية الكولومبية، والذين سقطوا فى مياه الكاريبى التى لا تعرف السكينة أو الرحمة. لقد لقى الجميع حتفه إلا بطل هذه الحكاية ووقتها أذاعت الأنباء الرسمية فى كولومبيا أن المأساة قد وقعت بسبب ريح صرصر عاتية، بينما الحقيقة غير ذلك تماما: كانت المدمرة تحمل بضائع غير مسموح حملها على متن مثل هذا النوع من السفن، ولما أن

كانـــت الحمولة تفوق طاقة المدمرة، بات من الصعب عليها أن تواجـــه العاصـــفة، فانزلقـــت الحمولة إلى الماء ثم جرفت فى طريقها كل بحار مسكين.

وعقب نشر تفاصيل الحكاية تفجرت الفضيحة، كان الفوز والـــتكريم والثروة من نصيب الغريق، أما الصحفى الذى أخذ علـــى عاتقـــه جمـــع أطراف الحكاية، فقد كان مصيره النفى والتشريد، وفى تلك الأثناء كان جابرييل جارثيا ماركيث يترقب مـــنحه جائـــزة نوبل للآداب، وهى أكبر جائزة يمكن أن تمنح لكاتـــب له نفس مكانته وشعبيته. وكثيرا ما كان ماركيث محطا لثـــناء العديـــد مـــن الكتّاب، الذين أشادوا بقدرته الفنية عالية الجـــودة، وأسلوبه الشيق الممتع، وموضوعاته المثيرة، فهاهو الـــروائى الإسبانى الشهير ميجيل ديليبس يعلق - فى سطور موجزة - على العمل الذى بين أيدينا، فيقول: "إن الطريقة التى اعـــتمدها الكاتب فى سرد حكايته تفيض حيوية وقوة أصابتنى بـــالدوار، هذا أمر لم يحدث لى قط - فيما أذكر - وأنا أتصفح كتابا غير هذا".

المترجم

القاهرة فى: ٢٠ فبراير ١٩٩٨

أصول الحكاية

فى الثامن والعشرين من شهر فبراير ١٩٥٥ علم الناس خبر الأفراد الثمانية الذين كانوا يكونون طاقم المدمرة كالداس: "هبت عليهم عاصفة جامحة فى الكاريبى، هوت بهم إلى الماء، فابـتلعهم فى معينه، كانت السفينة قد أبحرت من ميناء موبيل بالولايـات المـتحدة بعد إصلاحها، متجهة إلى ميناء قرطاجنه بكولومبيا حيث وصلت إليه فى موعدها بعد ساعتين من وقوع المأساة، وعلى الفور بدأت أعمال البحث عن الغرقى، بالتعاون مع القوات الأمريكية المرابطة فى قناة بنما للقيام بمهام المراقبة العسـكرية وبعـض أعمال البر الأخرى فى جنوب الكاريبى، وبعـد مرور أربعة أيام توقفت عمليات البحث، وأعلن رسميا عن وفاة البحارة المفقودين.

ورغـم هذا، فقد ظهر أحدهم بعد أسبوع، يحتضر فوق شاطئ صحراوى بشمال كولومبيا: لقد أمضى عشرة أيام دون طعام أو شراب، عائما على متن زورق تقاذفته الرياح طويلا، إنه لويس أليخاندرو بيلاسكو، وهذا الكتاب الذى بين أيدينا هو نـتاج إعداد صحفى لروايته، التى نشرتها صحيفة الإسبكتادور فى العاصمة الكولومبية بوجوتا بعد شهر من وقوع الكارثة.

ولـم يكن فى حسباننا، أنا والغريق، لحظة قيامنا بإعداد مغامـرته دقـيقة بدقـيقة، أن عمليات التحرى المضنية سوف

تقودنـــا إلى مغامرة جديدة، محدثا نوعا من القلق داخل البلاد، كلفـــه مجده وتاريخه العسكرى، وكاد أن يكلفنى حياتى أيضا. كانـــت كولومبـــيا تـــرزح تحـــت نير الديكتاتورية العسكرية والفلكلوريـــة للجـــنرال جوســـتابو روخـــاس بينـــيا، صاحب المفخرتيـــن: الأولى: تتعلق بالمذبحة الطلابية التى نفذتها قوات الجيش حينما أطلقت النار على الطلاب لقمع المظاهرة السلمية التى قاموا بها فى وسط العاصمة. الثانية: قيام البوليس السرى باغتـــيال عـــدد غـــير معروف من مشجعى مصارعة الثيران الربانييـــن عندما عبروا عن استنكارهم بالصياح والصفير فى وجـــه ابـــنة الديكـــتاتور الـــتى كانت موجودة فى نفس ميدان المصـــارعة. كانت الصحافة تخضع يومها للرقابة، وأصبحت المشـــكلة اليومية لصحف المعارضة تتلخص فى كيفية العثور على موضوعات لا تمت للسياسة بصلة، وذلك لمواجهة القراء وقد أسند هذا العمل المشرِّف والمضنى فى صحيفة الإسبكتادور إلـــى مديرها جيرموا كانو، ورئيس تحريرها خوسيه سالاجار، وإلـــىَّ أنا أيضا كصحفى مكلف بإعداد الخبر، كانت أعمارنا، ساعتئذ دون الثلاثين.

وعـــندما أتى إلينا لويس أليخاندرو بيلاسكو طوعا يسألنا ثمن روايته لنا لما وقع له، صارحناه بحقيقة الأمر: فما سيرويه لـــنا ليس إلا اختلاق، خاصة بعد أن احتجزته القوات المسلحة عـــدة أســـابيع فى أحد المستشفيات التابع للقوات البحرية، فلم يتمكـــن وقـــتها من الحوار إلا مع صحافة النظام الحاكم، ومع

صحفى آخر من المعارضة تخفّى فى زى طبيب، روى البطل حكايته على فترة من الوقت، منجمة، فى أجزاء متتالية، معدلة ومشـــوهة، وهـــنا ملأ الملل وجوه القراء؛ حيث شاهدوا البطل يبـــيع نفسه لشركات الدعاية: فهاهى صورته تظهر فى إعلان عن الساعات؛ إذ يبدو أن ساعته لم تؤخر قط عندما كان وسط المـــاء يلـــتحف السماء، كما شوهد يعلن عن نوع من الأحذية، فعلـــى ما يبدو أنه كان يرتدى حذاء شديد الصلابة، لدرجة أن محاولاته المتكررة لتمزيقه حتى يظفر منه بقطعة تقيم أوده قد بـــاءت بالفشـــل، هنا إلى جانب أنه قد بات يظهر فى إعلانات حقيرة أخرى، قلد النياشين، وأذاع كثيرا من الخطابات الوطنية عـــبر الإذاعة، كما لم يعدم فرصة الظهور على شاشة الإذاعة المرئية، باعتباره مثلا تحتذى به الأجيال القادمة. ثـــم قام بجولة جـــاب خلالهـــا نصف البلاد، أحيط خلالها بباقات الزهور وأنغام الموسيقى، وقّع أثناءها أوتوجرافات عديدة، وتلقى سيلا من قبلات ملكـــات الجمـــال، وحقق من وراء ذلك ثروة لا بأس بها، وإنه إذا ما أتى إلينا الآن، دون دعوة منا، وبعد بحث عنه دام طويلا، فمن المـــتوقع أنـــه لـــم يعـــد يملك فى جعبته الكثير، وأصبح بمقدوره اختلاق أى شئ من أجل المال، وأن الحكومة قد أوضحت له جيدا الحـــد الذى يمكن أن تصل إليه تصريحاته، فرددناه إلى حيث أتى، وعلـــى الفـــور لحق به جيرمو كانو، بدافع من داخله، عند السلم، وقبل صفقته، ثم سلمنى اياه، وهنا وقع الأمر علىّ كالصاعقة.

وأول مـــا أدهشـــنى هو أن ذلك الفتى صاحب العشرين

ربيعا، البدين، الذى تدل قسمات وجهه على أنه زامر أكثر منه بطـلا قومـيا، كـان يتمتع بملكة خارقة فى الحكاية، وبذاكرة وقـدرة علـى التألـيف يدهش لهما الإنسان، كما كان يحظى بكـرامة غـير مألوفة تدعو إلى السخرية من عمله البطولى، وعلـى مـدى عشـرين جلسـة، استغرقت الواحدة منها ست ساعات، قمت بتسجيل ملاحظاتى، وطرحت عليه أسئلة ملتوية علّها تكشف لى عما قد يقع فيه من تناقض فى أقواله. وقد أتاح لـنا ذلـك صياغة حكاية الأيام العشرة التى قضاها فى البحر بإحكـام شديد، فخرجت فى أسلوب دقيق ومشوق جعلنى أقف أمـام مشـكلة أدبية كبيرة؛ إذ كيف لى أن أحمل القارئ على تصـديق الحكاية، بعد أن صدقناها نحن، ووجدناها صحيحة، مما دفعنا إلى كتابتها على لسانه هو، ودفعها بتوقيعه الخاص، وهـذه هـى المـرة الأولى التى يظهر فيها اسمى مقترنا بهذا النص.

وأما دهشتى الثانية فقد كانت أكبر من سابقتها، ففى اليوم الـرابع مـن جلساتنا طلبت من لويس اليخاندرو بيلاسكو أن يصـف لـى العاصـفة التى نجم عنها وقوع الكارثة. فابتسم، مدركا أن ما يصرح به يساوى وزنه ذهبا ثم أجابنى قائلا: "لم تكن هناك عاصفة تذكر"، وكل ما حدث هو أنه فى شهر فبراير أكـدت لنا هيئة الأرصاد الجوية أن تلك الفترة من السنة يتميز فـيها الـبحر الكاريبى بالوداعة والصفاء، وأن الحقيقة التى لم تنشـر بعـد هى أن السفينة بعد أن وصلت أعالى البحار، أتت

علـيها ريـح عاصف، فأصابتها هزة عنيفة أطاحت بما كانت تحمله فوق متنها من بضائع فكّ قيدها، ثم ألقت بالبحارة الثمانية فى أعماق البحر، وهذا الذى أبوح به إنما يحمل فى طياته ثلاثة أخطـاء جسـيمة أولها: أن حمل مثل هذه البضائع على متن المدمـرة يعتبر أمرا مخالفاً للقانون، وثانيها: أن الأحمال حالت بين السفينة وبين القيام بأية مناورة من شأنها أن تنقذ الغرقى، وثالثها: أن السفينة كانت تحمل بضاعة غير مألوفة، كانت تعج بالـثلاجات وأجهـزة الـتلفاز، والغسـالات. وبدا واضحا أن الحكايـة، مـثلها فى هذا مثل المدمرة تماما، قد حملت بأعباء سياسية وأخلاقية فاسدة لم نكن ندركها.

قسـمت الحكايـة إلى فصول، ونشرت على مدى أربعة عشـر يومـا متواصلة. وقد احتفلت الحكومة فى بادئ الأمر بـالقداس الأدبى لبطلها. وبعد أن تم نشر الحقيقة كاملة، رأت الحكومة أن وقف النشر سيكون بمثابة عمل سياسى فظيع، وهو الأمر الذى زاد من توزيع الجريدة إلى ما يقرب من الضعف، فتجمعت أمام المبنى كوكبة من القراء تطلب ما فاتها من أعداد حتى تتمكن من الاحتفاظ بأعداد الجريدة كاملة بهذا الخصوص. وهـنا اكتفى الناطق باسم الديكتاتورية، حسب التقاليد المعمول بها لدى حكومات كولومبيا، بأن يلبس الحقيقة لباس السفسطة: أصدر بيانا رسميًا نفى فيه وجود بضائع غير مألوفة على متن المدمـرة، ومـن جانبنا نحن، وحتى تكون اتهاماتنا قائمة على دعائم راسخة، فقد طالبنا لويس أليخاندرو بيلاسكو بأن يزودنا

بقائمـــة أســـماء رفاقه من الطاقم الذين كانوا يحملون كاميرات للتصـــوير. كان معظمهم يقضى إجازته فى أماكن متفرقة من البلاد، ورغم ذلك، فقد تمكنا من العثور عليهم وشراء ما أعدوه من صور أثناء الرحلة. وبعد أسبوع من نشر القصة منجمة فى فصول، تم نشرها كاملة فى ملحق خاص، مزودا بالصور التى ابتعـناها مـــن البحارة. وقد بدت فى خلفية إحداها– تلك التى جمعت العديد من الأصدقاء فى أعالى البحار– أغلفة البضاعة الممنوعة، عليها أسماء الشركات التى صنعتها واضحة تمامًا. وهـــنا ردت الديكـــتاتورية علـــى الضربة بسلسلة من الأعمال الانتقامية الصارمة. انتهت، بعد بضعة أشهر، بإغلاق الجريدة.

ورغم الضغوط والتهديدات ومحاولات الرشوة المغرية، لـــم يقدم لويس أليخاندرو على اختلاق سطر واحد من الحكاية، وأصبح لزامًا عليه أن يترك الخدمة فى سلاح البحرية، الصنعة الوحـــيدة التى كان يتقنها، ثم أسدلت الحياة العامة عليه ستائر النسيان. ومنذ عامين نفيت إلى باريس، نفيًا جائرًا غير مأمول، يشبه إلى حد بعيد ذلك الزورق الذى تقاذفته الرياح، ثم سقطت الديكتاتورية، وأصبحت كولومبيا تحت رحمة أنظمة أخرى تبدو فى ظاهرها أفضل من سابقتها، مع أن الحقيقة أنهما فى ساحة الظلم سواء. لم يعد أحد يدرى عن الغريق شيئا فى عزلته، إلى أن عثر عليه صحفى شارد، بعد شهور قليلة، قابعًا فوق مكتب إحدى شركات السيارات. وكانت هيئته كالتالى: زاد وزنه، تقدم

ســـنه، خـــلا مـــن الحـــيوية إلا ذلك الروح الهادئ لبطل ملك الشجاعة التى نسف بها تمثاله.

لـــم أعد لقراءة هذه الحكاية منذ خمسة عشر عاما. تبدو لى جديرة بالنشر، إلا أننى لا أفهم بعد مدى النفع من نشرها.

آســـف لتلك الفكرة الشائعة بين الناشرين بأنهم لا يولون اهـــتمامًا كبـــيرًا للقيمة التى يشتمل عليها النص، ولا الشخص الـــذى يوقع عليه، الذى يعتبر، وللأسف الشديد، من بين كتاب الموضـــة، وإذا ما آن لهذه القصة أن ترى النور- حاليًا- فى صورة كتاب مطبوع، فهذا لأننى وافقت على هذا دون أن أفكر مليًا فى الأمر، وأنا من الرجال الذين يحترمون كلمتهم.

جابرييل جارثيا ماركيث

برشلونه، فبراير ١٩٧٠

الفصل الأول

رفاقى الذين غرقوا فى مياه البحر

في الثاني والعشرين من شهر فبراير، وبعد أن أمضينا ثمانية أشهر ننتظر الانتهاء من عمليات الإصلاح الإليكترونية ومعدات التسليح للمدمرة كالداس في ميناء موبيل بالولايات المتحدة، علم الأفراد نبأ عودتهم إلى كولومبيا. وبينما كانت تجري عمليات الإصلاح، تلقى أفراد الطاقم تعليمات خاصة، جعلتنا نتصرف في أيام الراحة كما يتصرف بقية البحارة على اليابسة: يذهب إلى السينما كل مع خطيبته... ثم نعود لنتجمع داخل حانة "جربالوكا" بالميناء، ونشرب الويسكي، ونفتعل المشاجرات من آنٍ لآخر.

كانت خطيبتي تدعى ماري أدرس، تعرفت عليها بعد شهرين من إقامتي في موبيل، عن طريق خطيبة بحار آخر، ورغم أن الفرصة واتت خطيبتي لتتعلم الإسبانية في سهولة تامة، إلا أنني على يقين تام من أنها لا تدري السبب الذي من أجله أطلق عليها أصدقائي اسم "ماريا ديريكثيون"(٥) ،كنت أدعوها لتذهب معي إلى السينما كلما وجدت إلى ذلك سبيلا، على الرغم من أنها كانت تفضل أن أدعوها لتناول الجيلاتي. كان التفاهم يتم بيننا بالإسبانية أحيانا وبالإنجليزية أحيانا أخرى، ورغم أنني لم أكن أفهم لغتها ولا هي تفهم لغتي إلا في القليل

الـــنادر، فقد تفاهمنا، سواء داخل دار السينما أو خارجها ونحن نتناول الجيلاتي.

كانت ماري ترافقني في كل مرة أذهب فيها إلى السينما، باســتثناء مــرة واحدة، ذهبت فيها مع أصدقائي لمشاهدة فيلم "تمــرد الكايــن"، فقد علم البعض منهم أنه من الأفلام الجيدة، تــدور أحداثــه حول حركة الحياة في إحدى كاسحات الألغام، وهي مغامرة دفعتنا جميعًا إلى مشاهدته، لم تكن كاسحة الألغام فــي حد ذاتها أفضل المشاهد التي اشتمل عليها الفيلم، بل تلك العاصــفة الــتي تعرضت لها، وقد استقر رأي الحاضرين منا علــى أن أفضل شئ يمكن عمله لتفادي مثل تلك العاصفة، هو تغيــير وجهــة الســفينة، وهــو ما نفذه المتمردون بالفعل. لم نــتعرض قــط فــي حياتنا لمثل هذه العاصفة، ولهذا فقد كان مشــهدها من أكبر المشاهد التي تركت آثارها علينا جميعًا، أنا ورفاقي.

وفــور عودتــنا إلى مضاجعنا، شاهدنا آثار الفيلم تبدو واضــحة علــى البحار دييجو بيلاتكيث، فها هو يتخيل أمرنا عــندما نصبح وسط مياه البحر بعد عدة أيام، ثم أطرق قائلا: ماذا لو حدث لنا أمر كهذا؟

أعترف بأنني تأثرت بما تأثر به تمامًا، فالأشهر الثمانية كفيلة بأن تنسيني شئون البحر، إلا أن الخوف لم يعرف طريقه إلــى قلــبي، فقد علمنا مرشدنا كيف نقوم بحماية أنفسنا ساعة

الغـــرق. ومـــع هذا، فإن القلق الذى انتابنى فى تلك الليلة التى شاهدنا فيها فيلم "تمرد الكاين " لم يكن أمرًا طبيعيًا.

لا أريـــد القـــول بأننى بدأت، منذ هذه اللحظة، أستشعر وقـــوع الكارثـــة، ففى الواقع، لم أكن أشعر بخوف قط عندما اقتربت ساعة السفر، فمنذ أن كنت طفلا، فى العاصمة بوجوتا، أقلـــب صـــفحات الكتب لأشاهد ما بها من صور، لم يرد إلى ذهـــنى احـــتمال أن يلقـــى المرء حتفه فى مياه البحر، وعلى النقـــيض مـــن هـــذا، فقـــد وجدتنى أفكر فيه تفكير الواثق به. وانتابتـــنى حالة جديدة من القلق، لم أشعر بها منذ اثنتى عشرة سنة، اليوم الذى التحقت فيه بسلاح البحرية.

ولا أستحى من الاعتراف بأننى بدأت أشعر بشىء يشبه الخوف عقب مشاهدتى لفيلم "تمرد الكاين"، وفى لحظة رأيتنى ممـــددًا علـــى ظهـــرى فوق سريرى، الذى علا أسرّة السفينة بأســـرها، أمعـــن التفكـــير فـــى أسرتى، فى الرحلة التى من المفـــروض أن نقوم بها قبل أن نصل إلى قرطاجنه، لم أستطع النوم، وضعت رأسى بين كفى وأخذت أنصت إلى خرير الماء يـــرتطم برصيف البحر، وإلى الأنفاس الهادئة التى تنبعث من أعمـــاق الأربعيـــن بحـــارا الذين يغطون فى نومهم فى نفس الصـــالة. وأســـفل ســـريرى كان البحار الأول لويس رينخيفو يصـــدر شخيرًا أشبه بالبرق، وما كنت أدرى بماذا كان يحلم، رغـــم يقيـــنى بأنـــه لم يكن لينام بمثل هذه السكينة لو علم أنه سيستقر ميتًا فى قاع البحر بعد ثمانية أيام من الآن.

ظـل القلق يلازمنى على مدى أسبوع كامل. وكان يوم السـفر يقـترب فـى سرعة مفزعة، وحاولت أن أملأ نفسى طمأنينة فانخرطت فى الحديث مع رفاقى. كانت السفينة كالداس تتأهـب للرحـيل، وأصبح الحوار الذى يلح علينا، خلال تلك الأيام، منصبًا على عائلاتنا وبلدنا كولومبيا ومشروعاتنا عقب عودتنا. كما أن السفينة قد استعدت تمامًا لاستقبال ما أحضرناه من هدايا لبيوتنا: فتلك أجهزة مذياع، وهذه ثلاجات، وغسالات، ومواقد كهربائية. وأما أنا فقد أحضرت معى مذياعا.

إقترب موعد الرحيل، ومازلت أحمل همومى فى رأسى لا أستطيع منها فكاكا، وهنا قررت ما يلى: سوف أعتزل سلاح البحرية لدى عودتى مباشرة إلى قرطاجنه، ولن أعرض نفسى لمخاطـر السـفر عبر البحر مرة أخرى. وقبل أن أرحل بليلة واحـدة ذهبـت إلـى مارى لأودعها، وقد عزمت أن أخبرها بمخـاوفى وبقرارى هذا، ولكننى لم أخبرها بشىء؛ إذ وعدتها بأنـنى سأعود مرة أخرى، وهنا لم يكن لها أن تصدقنى إذا ما صارحتها بأننى اعتزمت عدم ركوب البحر مرة أخرى.

لم أبح بقرارى هذا إلا لواحد فقط يعمل برتبة بحار ثانٍ بالسـفينة، هو صديقى الحميم رامون إيريرا، والذى صارحنى بنيـته فى ترك الخدمة بسلاح البحر فور عودته إلى قرطاجنه. وهـنا تملكنا الخوف أنا ورامون إيريرا، فقررنا أن نخرج فى صـحبة البحار دييجو بيلاتكيث لنحتسى كأس الوداع فى حانة جو بالوكا.

كانت غاية تفكيرنا أن نتناول كأسا واحدة، ولكننا التهمنا خمس زجاجات، وفي هذه الأثناء علمت صديقاتنا بأننا راحلون، فما كان منهن إلا أن أتين إلينا لوداعنا، وشرب نخبنا، وليذرفن الدمع كدليل على امتنانهن. كان قائد الأوركسترا رجلاً جادًا، يضع على عينيه نظارة تباعد بينه وبين عالم الموسيقى مسافة بعيدة، ظل يعزف على شرفنا برنامجًا من موسيقى المامبو والتانجو، ظنًا منه أنها موسيقى كولومبية، وأما صديقاتنا فقد أجهشن بالبكاء وشربن نوعًا من الويسكي يصل ثمن الزجاجة منه دولارا ونصف، تجمع في أيدينا مبلغ كبير من المال، راتب ثلاثة شهور تقاضيناه دفعة واحدة، وهنا قررنا أن نفرغ جيوبنا منه تماما. قررت ذلك لأنني كنت مثقلا بالهموم، وفكرت في أن أشرب حتى الثمالي. وأما رامون إيريرا فلأنه كان يشعر بسعادة غامرة كعادته، فهو من ساكني أرخونا[٦] ،ويجيد الضرب على الطبول، ويتمتع بمهارة لا نظير لها في تقليد المغنين المحدثين.

وقبل أن نغادر المقهى بقليل، اقترب منا بحار أمريكي، ثم طلب من رامون إيريرا السماح له بأن يرقص مع صديقته الشقراء، التي كانت أقل صديقاتها تناولا للخمر وأكثرهن انتحابا- بكل صراحة - فقد كان الأمريكي يتحدث إلى رامون إيريرا مستئذنا باللغة الإنجليزية، وهنا هم رامون إيريرا به فنهره في عنف وهو يخاطبه بالإسبانية: "لا أفهم مما قلت شيئًا".

شـــهدت موبيل ليلتها واحدة من أفضل المشاجرات التى نشـــبت على أرضها، استخدم المتشاجرون فيها كمًا هائلا من الكراســـى، تحطـــم فـــوق رؤوس الأشـــهاد، وتجمعت خلالها دوريـــات اللاســـلكى ورجـــال البوليس، عاد رامون إيريرا – أدراجـــه إلى السفينة، بعد أن صفع الأمريكى على قفاه، وذلك فـــى تمـــام الواحدة صباحًا. ومازال يقلد صوت المغنى دانييل سانتوس، ثم قال إن هذه الرحلة ستكون الأخيرة بالنسبة له، وقد كانت بالفعل.

فـــى تمام الثالثة من صباح الرابع والعشرين من فبراير أقلعـــت الســـفينة كـــالداس مـــن ميناء موبيل فى طريقها إلى قرطاجنه. شعرنا جميعًا بالفرحة لمجرد عودتنا إلى بيوتنا، فما مـــنا مـــن أحد إلا وأحضر معه هداياه. وقد بدا رقيب المدفعية ميجيل أورتيجا أكثرنا سعادة. كما أظن أنه لم يكن بيننا من هو أعقل منه، فطوال الأشهر الثمانية التى أمضيناها فى موبيل لم يســـلك ســـلوك المبذريـــن على الإطلاق، وإنما استثمر كل ما حصله من نقود فى شراء هدايا لزوجته التى كانت تنتظره فى قرطاجـــنه، وفـــى نفس الصباح الذى أقلعت فيه السفينة شوهد الرقيـــب أورتيجا واقفا عند الجسر يتحدث عن زوجته وأولاده علـــى وجـــه التحديد، وهذا أمر لا يمكن أن يفسر على أنه من قبيل الصدفة، فما كان يتحدث وقتها عن شئ آخر. كان يحمل معـــه ثلاجة، وغسالة أوتوماتيكية ومذياعا ومدفأة. وبعد اثنتى عشـــرة ســـاعة من الآن سيكون الرقيب أورتيجا مستلقيا فوق

ســريره، يكاد أنٍ يجهز عليه دوار البحر، وبعد اثنتين وسبعين ساعة سيستقر ميتًا في قاع البحر.

ضيوف الموت:

إن سفينة من السفن حينما يحين وقت إقلاعها يصدر إليها الأمــر التالى: "ليلزم كل فرد بالسفينة مكانه"، وفى هذه اللحظة، يلــزم كل فرد مكانه إلى أن تغادر السفينة الميناء. كنت من بين أولــئك الذيــن لــزموا مكانهم فى دعة، أمام برج الطوربيدات، فشاهدت أنوار موبيل تتوارى خلف السحاب، لم أكن أفكر وقتها فــى مــارى، بل فى البحر فحسب، وقد أدركت أننا سنصل إلى خلــيج المكســيك فــى اليوم التالى، وأن الطريق دائما ما يكون محفوفــا بالمخاطر فى مثل هذه الفترة من العام. وحتى إن طلع الفجــر، لــم أشــاهد المــلازم خايمى مارتنيث دياجو، ضابط العملــيات الثانى، الوحيد الذى لقى حتفه فى الكارثة. كان رجلا طويل القامة، قويا، هادئا، ما كنت أراه فى المناسبات إلا نادرا، وعرفت أنه من أبناء توليما[٧]، وأنه من الشخصيات الممتازة.

وعلــى جانب آخر، رأيت، فى الصباح، ضابط الصف خولــيو أمادور كاربابيو، الذى كان يشغل درجة ملاحظ ثان، كــان رجــلاً طويل القامة، صحيح البدن، مَر بجوارى، وظلَ يتأمل "للحظات" آخر قبس من نور كان يتلألأ فى سماء موبيل، ثــم رجع إلى مكانه ثانية. أظن أنها كانت المرة الأخيرة التى رأيته فيها داخل السفينة.

كان ضابط الصف إلياس سابوجال، رئيس سائقى السفينة، الوحيد، من بين طاقم المدمرة كالداس، الذى أعرب عن فرحته بالعودة فى صخب تام. كان يلقب بذئب البحر، قصير القامة، ذا إهاب مدبوغ، قوى البنية، ثرثارا، بلغ الأربعين من عمره تقريبا، وأفنى معظمه فى الثرثرة مع الآخرين.

كانت لسابوجال أسبابه التى جعلته يبدو أكثر سعادة من غيره، ففى قرطاجنه كانت زوجته وأولاده الستة فى انتظاره، وما كان يعرف من أبنائه سوى خمسة فقط؛ فأصغرهم خرج إلى الحياة خلال تواجدنا فى موبيل.

كانت الرحلة فى غاية الهدوء حتى مطلع الفجر، وفى الساعة التى أبحرناها تعودت ركوب البحر من جديد، كانت أنوار موبيل تتوارى بعيدًا بين سحب يوم هادئ، والشمس فى مخدعها الشرقى تبدو بازغة الهوينا، وفى هذه اللحظة ذهب عنى الشعور بالقلق، وأحسست إجهادا؛ لأننى لم أذق طعم النوم طوال الليل، وأحسست عطشا ومرارة فى حلقى من آثار الويسكى.

غادرنا الميناء فى تمام السادسة صباحا، وساعتها صدر الأمر التالى: "على الأفراد أن يستريحوا، وأما حراس البحر فعليهم أن يلزموا أماكنهم" وهنا توجهت إلى حجرة نومى، وعدت لسريرى، وجدت لويس رينخيفو جالسا يفرك عينيه يغالب النعاس.

- أيـــن نحـــن؟- سألنى لويس رينخيفو - أجبته بأننا قد غادرنا الميناء اتونا، ثم صعدت إلى سريرى طلبا للنوم.

كـــان لويـــس رينخـــيفو بحارًا بكل ما تحمله الكلمة من معـــنى، ولد فى تشوكو[٨] بعيدًا عن البحر، رغم أنه كان كالدم يسرى فى عروقه. لم يكن لويس رينخيفو ضمن طاقم السفينة، وإنمـــا كان يدرس فى واشنطن علم تخزين السلاح، كان جادا، ومجتهدا فى دراسته، يجيد الإنجليزية كالإسبانية تماما.

تخرج لويس فى الخامس عشر من مارس، فى واشنطن، مهندسا مدنيا، وفى عام ١٩٥٢ تعرف بفتاة من الدومينكان[٩] ثم تـــزوج مـــنها، وقـــد الـــتحق بطاقم المدمرة كالداس قادما من واشنطن بعد أن تم إصلاحها، وقبل أن نغادر موبيل ببضعة أيام أخبرنى بأن أول ما سيقوم به عندما تطأ قدماه أرض كولومبيا هـــو اتخـــاذ الإجراءات العاجلة التى من شأنها أن تتيح له نقل زوجته إلى قرطاجنه.

لم يكن لويس قد ركب البحر منذ فترة طويلة، ولهذا فقد أيقنـــت أنـــه ســـوف يعانى دواره معاناة بالغة، وهاهو قد أخذ يســـألنى فـــى أول صباح يطلع علينا فى رحلتنا، وهو يرتدى ثـــيابه، قائلا: ألم يصبك دوار البحر بعد فأجبته بالنفى، وحينئذ قال:

- ما هى إلا ساعتين أو ثلاث وسأراك وقد تدلى لسانك من فيك.

- قلت له: بل سأراك أنت فى مثل هذه الحالة.

فرد هو:

- إذا ما أتى علىَّ يوم أصاب فيه بدوار البحر، فسيصاب البحر نفسه بدوار.

وهـــا أنا ذا أرقد فى سريرى، أصالح النعاس، وتذكرت العاصـــفة، وهنا عادت إلىَّ مخاوفى من جديد، بعد أن عانيت مـــنها فـــى ليلتى السابقة، لازالت همومى تلاحقنى، وعند ذلك اســـتدرت إلى حيث يقبع لويس رينخيفو، وقد انتهى من ارتداء ملابسه، ثم قلت له احترس:

- لا يغلبنك دوار البحر.

الفصل الثانى

الدقائق الأخيرة التى أمضيتها على متن «السفينة الذئب»

"هانحــن قــد أصــبحنا فى الخليج". هذا ما قاله لى أحد رفاقى عندما استيقظت لأتناول طعام الغذاء، فى اليوم السادس والعشرين من فبراير. قبل ذلك بيوم، انتابنى الخوف من حالة الطقــس فى خليج المكسيك، وفجأة اعترت السفينة هزة خفيفة، ومع هذا فقد كانت تنساب فوق سطح الماء فى سهولة، كنت فى غايــة الســعادة، ووجــدت أن مخاوفى هذه لا أساس لها من الصحة، ثم صعدت إلى ظهر المدمرة، خبا طيف الشاطئ، فلم تعد هناك سوى زرقة السماء تظللنا، وخضرة ماء البحر تلفنا، وفى هذا الجو، رأيت الرقيب ميجيل أورتيجا جالسا وسط ظهر الســفينة، شاحب الوجه، مفكك الأوصال، يصارع دوار البحر، وكلهــا أعراض بدت عليه منذ فترة غير وجيزة، منذ أن كانت أنوار موبيل لا تزال تسطع فى الأفق، ورغم أن ركوب البحر لــم يكــن أمرا غريبا على الرقيب أورتيجا، فلم يستطع، خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، أن ينهض واقفا على قدميه.

عمــل ميجــيل أورتيجا ضمن طاقم الفرقاطة "ألميرانتى باديــا" فى كوريا. كان كثير الترحال، مما جعله يأنس ركوب الــبحر، ومــع هــذا، فما كان من بد، رغم ما ساد الخليج من هــدوء، من مساعدة الرقيب حتى يقوى على الحركة، ويتمكن

مــن أداء واجــب الحراســة على أكمل وجه، بدا كما لو كان يحتضر، ولم يصبر على طعام قط، فقمنا، نحن رفاقه، بتهيئته للجلوس فى وسط مؤخرة السفينة حتى صدرت إلينا أوامر بنقله إلى غرفة النوم. وهنا نام على سريره مستلقيا على وجهه، مادًا عنقه خارجه، على أمل أن يخرج ما فى بطنه.

أعــتقد أن رامــون إيريــرا قــد أخبرنى، ليلة السادس والعشــرين من شهرٍ نوفمبر، أن الأمور لن تكون سهلة ميسرة فــى الكاريبى، ووفقا لحساباتنا فقد غادرنا خليج المكسيك بعد منتصــف اللــيل. بيــنما أنــا قــابع فى مكان حراستى أمام الطوربيدات، وجدتنى متفائلا، أتخيل لحظة عودتنا مرة أخرى إلــى قرطاجــنه، كــان اللــيل صــافيا، والسماء على علوها واستدارتها، تزخر بالنجوم، أخذت أراقبها فى هدوء شديد، فقد كانت هذه هى هوايتى التى تولدت عندى منذ أن التحقت بسلاح الــبحرية. وظللــت أتــأمل النجوم فى هذه الليلة، غير عابئ بالمدمــرة كــالداس الــتى أخــذت تشق طريقها فى دعة نحو الكاريبى.

يخيل إلىَّ أنه بمقدور البحار الذى جاب كل بلاد العالم أن يعرف اسم البحر الذى يمر به من خلال رؤيته لحركة السفينة. وقــد أفدت كثيرا من خبرتى التى اكتسبتها عن هذا البحر الذى ركبــته فى أول عهد لى بسلاح البحرية، نحن الآن فى البحر الكاريــبى. حدجــت ســاعتى بــنظرة، فوجدتها الثانية عشرة

والنصف ليلا، الثانية عشرة وإحدى وثلاثين دقيقة من فجر يوم السـابع والعشـرين من فبراير، اهتزت السفينة، ولو لم تعتر السـفينة هـذه الهزة الشديدة، كنت سأعرف حقيقة البحر الذى نعـبره. اعترتنى حالة من القلق، وأنا من أنا، أنا من لم يشعر بـدوار من قبل. داخلنى هاجس غريب. ودون أن أدرى سببا لذلـك، وجدتـنى أتذكـر الرقيب أورتيجا، الذى كان يرقد فى السرير أسفل منا، مترقبا إخراج ما فى بطنه من طعام.

وفـى تمام السادسة صباحا رأيت السفينة تتحرك كما لو كانـت قشـرة بـيض، وكان لويس رينخيفو جالسا يترقب فى سريره التحتى.

– أيها البدين – قال لى – ألم يصبك الدوار بعد؟

أجبته بالنفى، رغم أننى أبديت له مخاوفى.. كان رينخيفو – كما أوضحت آنفا – مهندسا، ودارسا مجدا، وبحارا عظيما. وعلـيه، فقد فنّد لى من الأسباب الكثيرة حتى يدفع أدنى شبهة بشأن احتمال تعرض السفينة كالداس لكارثة بسبب الأهوال فى مياه الكاريبى. "إنها السفينة الذئب". قال ذلك لى، وهو يذكرنى بـأن مياه الكاريبى هذه قد شهدت، إبان الحرب، حادث غرق غواصة ألمانية على يد طاقم المدمرة الكولومبية.

"إنهـا سفينة آمنة "، قال لويس رينخيفو. كنت راقدا فى سريرى لا يغمض لى جفن بسبب الهزات العنيفة التى اعترت السـفينة. رغم إحساسى بالأمان لكلمات لويس رينخيفو. وهنا

بــدأت أتخــيل وضــع المدمــرة كــالداس وسط تلك الأمواج المــتلاطمة المهيــبة، وعلـــى الفور تذكرت أحداث فيلم "تمرد الكاين".

كان الطقس مستقرا طوال اليوم، والسفينة تقطع طريقها فى جو طبيعى للغاية، وحينما جاء دورى فى الحراسة وجدت الفرصة سانحة كى أجنح بخيالى لأضع خطة للمشروعات التى أنـــتوى تنفيذها عقب عودتى إلى قرطاجنه، سأكتب إلى مارى، ســأكتب إلــيها مرتيــن فـــى الأســبوع، فما أنا بالكسول فى مراســلاتى، ومــنذ أن التحقــت بسلاح البحرية، كنت أكتب أسبوعيا إلى عائلتى فى بوجوتا، إلى أصدقائى فى حى أولايا، الذين أرسلت إليهم العديد من الخطابات المطولة، وهاهى فكرة الكتابة إلى مارى تدفعنى للتفكير فى حساب الساعات التى تبقت لنا حتى نصل إلى قرطاجنه: ٢٤ ساعة بالتمام. كنت آخر فرد يقوم بدوره فى الحراسة يومئذ.

أعانـــنى رامون إيريرا على نقل الرقيب ميجيل أورتيجا إلى سريره، كانت حالته تزداد سوءًا ساعة بعد أخرى، فما ذاق طعامًـــا قـــط منذ الأيام الثلاثة التى سبقت خروجنا من موبيل، سكت عن الكلام تماما، واخضر وجهه وتعكر.

بداية الرقص:

فـــى تمام العاشرة مساء بدأت السفينة حلقة من الرقص، انتابتها هزة استمرت طوال اليوم، ولكن الهزة التى انتابتها ليلة

الســابع والعشرين من فبراير كانت أشد وأنكى. أمضيت الليلة سهران أسفا فوق سريرى، أفكر فى أفراد الحراسة المتواجدين علــى متــن السفينة، وكنت على يقين من أن البحارين، واحدا واحــدا، لــم يغمض لهم جفن وهم يرقدون هناك فى أسرّتهم، وقــبل الثانية عشرة بقليل، قلت للويس رينخيفو الذى يرقد فى سريره التحتى:

- ألم يصبك الدوار بعد؟

وكمــا توقعــت، فلــم ينم هو الآخر، ولكنه، رغم الهزة العنــيفة الــتى اعــترت الســفينة، لم يفقد روح المرح الطيب المعهودة لديه، وقال:

- أخــبرتك مــن قبل أنه إذا ما أتى علىَّ يوم يصيبنى الدوار فيه فسيصاب البحر نفسه به.

كانــت تلك هى عبارته التى يرددها دوما، ولكنه لم يكد يجد الوقت الكافى ليقولها كاملة فى تلك الليلة.

أحسســت قلقــا مفزعا، وشيئا أشبه بالخوف. رغم أننى كنــت متأكدا من شعورى فى منتصف ليلة السابع والعشرين، وقــت أن صدر الأمر العام الذى جاء فيه: "على جميع الأفراد الإنتقال إلى الجانب الأيسر".

كنــت أعلم تمام العلم المعنى الذى ينطوى عليه مثل هذا

الأمـــر: فمـــا من شك في أن خطرًا يهاجم السفينة من جانبها الأيمن، فأمالها. وليس هناك من طريقة تعيد بها توازنها سوى نقـــل الأفراد إلى الجهة اليسرى، كانت هذه هي المرة الأولى، خـــلال عاميـــن ركبـــت فيهما البحر، التي شعرت فيها بخوف حقـــيقي مـــن مـــياهه. بدأت الرياح تدوي أعلى السفينة، حيث يـــتواجد بعـــض الأفراد، والذين من المؤكد أن المياه قد بللت أجسادهم، وأرعدت الرجفة أوصالهم.

ومـــا أن ســـمعت الأمـــر حـــتى قفزت من فوق اليخت الخشـــبي، أمـــا لويس رينخيفو فقد وقف في هدوء تام، ثم أخذ طـــريقه إلى اليخت هربا، اليخت الخاص بأحد أفراد الحراسة، وجـــده خاليا في الجانب الأيسر، حاولت أن أشق طريقي متكئا على الأسرة الأخرى، وفي هذه الحالة تذكرت ميجيل أورتيجا.

لـــم يكن يقوى على الحركة. وعند سماعه للأمر، حاول أن يقـــوم من سريره، ولكن محاولته باءت بالفشل، فخرَّ فوقه مـــرة أخرى، بعد أن غلبه الدوار، وأنهكه الهزال، وهنا مددت إليه يدي لأعينه على القيام، وحملته إلى سرير بالجانب الأيسر، فأخبرني، في صوت متهدج، بأن حالته سيئة للغاية.

- قلت له: إذن سنعمل على ألا تقوم بدورك في الحراسة.

يبدو أنها نكتة غير لطيفة، إلا أنه لو ظل ميجيل أورتيجا راقدا في سريره الآن، لما أدركه الموت.

وطــوال لــيلة الثامن والعشرين لم أذق طعم النوم دقيقة واحــدة. وفى تمام الساعة الرابعة من فجر تلك الليلة، تجمعت أنا وخمسة من رفاقى خارج الخدمة فى مؤخرة السفينة، وكان من بينهم رفيقى الملازم لى رامون إيريرا،. كان ضابط صف الحراسة يدعى جيرمو روتو، وكانت تلك آخر مهامى على متن السـفينة. كنــت أعلم أننا سنصل إلى قرطاجنه فى تمام الثانية ظهــرًا، وفكــرت فــى أن أنــام قليلا عقب انتهائى من نوبة الحراسة، حتى تصبح لدى فرصة كى ألهو وأتسلى فوق أرض الوطــن، بعد غياب دام ثمانية أشهر. وتمام الخامسة والنصف فجــرا هممت بتفقد قاع السفينة فى صحبة أحد الفتية العاملين بهــا. وفــى السابعة تسلم كل منا موقعه من الخدمة بدل رفاقنا الذيــن ســهروا عليها ليتناولوا إفطارهم، ثم تسلموها منا مرة أخــرى فى تمام الثامنة. فى هذه اللحظة التى سلمت فيها آخر نوبــة لــى، اشــتدت الريح، وعلت الأمواج شيئًا فشيئًا، حتى غمــرت ســطح الســفينة بالماء، مخلفة وراءها دويًا بعد أن ارتطمت بالجسر بشدة.

كــان رامون إيريرا قابعا فى مؤخرة السفينة، أما لويس رينخيفو فكان يحتل موقع شرطى الإنقاذ فى حالات الطوارئ، يضــع الســماعات على أذنيه، وفى وسط سطح السفينة شوهد ميجيل أورتيجا مائلا يحتضر من شدة دوار البحر الذى مازال يلازمــه. لــم نكد نحس حركة السفينة فى هذا المكان. أجريت حوارا مع إدواردو كاستيو، البحار الثانى، الأعزب، الذى يعمل

أمينا للمخزن. وهو من أبناء بوجوتا، شديد التحفظ. ومع هذا، فــلا أتذكر حول أى الموضوعات دار الحوار بيننا، وما أذكره هو أننا افترقنا دون أن يرى كل منا الآخر، حتى لحظة غرقنا فى البحر بعد ساعات قليلة.

أخذ رامون إيريرا يجمع أوراق الكرتون ليلتحف بها فى محاولة منه لمصالحة النوم؛ حيث بات من العسير على أى منا أن يجــد راحــته فى غرف النوم نظرًا لحركة السفينة الدائبة. علت الأمواج رويدا رويدا، فأحدثت فرقعة بسطح السفينة. أما أنـــا فقد آويت إلى ركن مكين بجانب رامون إيريرا، بين الكم الهـــائل مـــن الثلاجات والغسالات والمدافئ، التى وضعت فى أمـــان بمؤخـــرة السفينة، وقد بدا كل منا يشد صاحبه حتى لا يجرفه الموج. استرخيت ممددا ووجهى إلى السماء، أتأملها فى عناية، فشعرت حينئذ بالسكينة، ليقينى بأننا سنكون، بعد ساعات قلـــيلة، فى خليج المكسيك. هدأت العاصفة، وبدا النهار صافيا، والـــرؤية جلية، والسماء فى أبهى زرقتها. وها أنا قد استرحت من نوبة الحراسة، ونزعت حذائى من قدمى، ثم استبدلته بآخر من الكاوتشوك فأراحنى كثيرا.

لحظة صمت:

ســـألنى لويـــس رينخيفو كم الساعة الآن؟ أجبته: الثانية عشـــرة والنصـــف. وهاهى السفينة قد بدأت، منذ ما يقرب من ســـاعة، تـــتمايل، ثم أخذت منعطفا خطيرا جهة اليمين. وهنا،

جاءنا الأمر الذى صدر ليلة أمس عبر مكبرات الصوت قائلا: "هلموا جميعا إلى الجانب الأيسر" لم نكلف أنفسنا- أنا ورامون إيريرا - مشقة الحركة، فقد كنا بالفعل فى نفس الجانب.

تخيلـت الرقيـب ميجيل أورتيجا، وقد فارقته قبل الآن بدقيقة واحدة فى الجانب الأيمن، وفى التو رأيته يمر من أمامى وقد تداعى جسده، فاستلقى فى الجانب الأيسر، يحتضر من شدة الـدوار. وفى هذه اللحظة مالت السفينة ميلا شديدا، ثم هوت. حبست أنفاسى. لطمنا الموج بشدة، فأحدث دويا، وبعدها وجدنا أجسادنا قد بللها الماء، كما لو كنا قد خرجنا لتونا من البحر، ثم استعادت السفينة الهوينا، وبعد جهد جهيد، سيرتها الأولى. كان لويـس رينخيفو يقوم وقتها بمهام حراسته، علت وجهه زرقة ضاربة إلى السواد، ثم قال فى عصبية: يا للضيق سوف تذهب هذه السفينة بلا رجعة.

كانـت تلـك هـى المرة الأولى التى رأيت فيها لويس رينخـيفو عصـبيا، أما رامون إيريرا فكان يرقد إلى جوارى، غارقـا فـى التفكير، صامتا، وقد بللت ثيابه عن آخرها. ساد سكون تام، قطعه رامون إيريرا قائلا:

سأكون على أهبة الاستعداد، حتى إذا ما صدرت الأوامر بفك قيود الحمولة حتى تأخذ طريقها إلى الماء، لكى أكون أول مـن يقـوم بتنفـيذها، وكانت الساعة الحادية عشرة وخمسون دقيقة.

فكــرت أنا الآخر فى أن مثل تلك الأوامر ستصدر إلينا بين لحظة وأخرى، وهو ما يطلق عليه "تفريغ السفينة من أجل التخفيف"، وعلى أثر هذا التفريغ سيهوى كم هائل من الثلاجات والمدافئ وأجهزة الراديو إلى الماء، وهنا جاءتنى فكرة الهبوط إلـــى غرفة النوم، ففى مؤخرة السفينة كان كل فرد يأمن على نفسه، إذ حالت الثلاجات والمدافئ بيننا وبين أن يجرفنا الموج.

ظلـــت السفينة تصارع الأمواج المتلاطمة، إلا أنها بدأت تمـــيل شيئًا فشيئًا، وهنا التقط رامون إيريرا شبوطا يلتحف به. احتمينا جميعا بهذا الشبوط، إلا أن الموج ازداد هياجا عن ذى قـــبل، وعـــاد ليضربنا من جديد، وعندما هاج الموج، أمسكت رأسى بيدى، ولم تمض سوى دقيقة ونصف حتى تتحنح شخص عبر مكبرات الصوت.

"لاشك أنهم سيصدرون أمرا بفك قيود الحمولة، فكرت. لكـــن الأمر قد اختلف تماما، وفى هدوء وسكينة سمعنا صوتا يقـــول:" علـــى كل الذين يمرون فوق سطح السفينة أن يرتدوا أطواق النجاة".

وهنا تحرك لويس رينخيفو فى هدوء، فأمسك بالسماعات بـــإحدى يديه، ثم ارتدى طوق النجاة بيده الأخرى، وكعادتى، أحسست، عقب تلك الموجه العاتية، فراغا كبيرا، أعقبه سكون دفين. شاهدت لويس رينخيفو بعد أن ارتدى طوق النجاة، يفرغ مـــن وضـــع الســـماعات على أذنيه، وحينئذ أغمضت عينى،

وظللـــت أستمع فى وضوح تام إلى دقات ساعتى: تيك.. تيك.. تيك.

اســتمعت لدقـــات الســـاعة برهة من الزمن. لم يتحرك رامـــون إيريـــرا. بدأت أحسب الوقت: فبعد ربع ساعة ستدق الثانـــية عشرة. لم يتبق من الوقت سوى ساعتين على وصولنا إلى قرطاجنه. يبدو أن السفينة قد توقفت فى الهواء لحظة. وهنا أخرجت ذراعى لأرى كم تكون الساعة الآن، ولكننى ما رأيت ذراعـــى، ولا كـــف يدى، ولا الساعة كذلك. فما رأيت الموج. أحسســـت أن السفينة تأخذ طريقها لتتوارى عن الأنظار، وأن الحمولـــة التى كنت أتكئ عليها أخذت تتدحرج. وفى جزء من الثانـــية، وجدتنى واقفا، يكاد الماء يلجمنى. وهنا لمحت لويس رينخـــيفو وقـــد اخضر لونه، وجحظت عيناه، صامتا لا يتكلم، يرفع السماعات بكلتا يديه إلى أعلى حتى يراه الناظرون. حينئذ غمرتنى المياه، فسبحت فى طريقى إلى أعلى.

حاولـــت أن أطفـــو فـــوق سطح الماء، فأخذت أسبح موليا وجهى صوبه ما يقرب من دقيقة أو اثنتين أو ثلاث. وفى طريقى إلـــى الســـطح كدت أختنق نظرا لنقص الهواء. حاولت جاهدا أن أمســـك بالحمولة، ولكنها قد توارت، حتى لم أعد أجد شيئا حولى؛ لـــم أجـــد شيئا غير البحر. وبعد ثانية، وعلى مسافة ما يقرب من المـــتر، بـــدت السفينة لى بين الأمواج، يتدفق الماء من جوانبها، كالغواصة تماما، وهنا أدركت أن الماء قد أغرقها فى معينه.

الفصل الثالث

أربعة من رفاقى يغرقون أمام عينى

كان أول انطباع جال بخاطرى هو أننى أصبحت وحيدا تماما وسط مياه البحر. وفى اللحظة التى كنت أطفو فيها فوق سـطح الماء شاهدت موجة أخرى تضرب المدمرة على مسافة مائـتى متر من مكانى، فهوت بها فى مكان سحيق أخفاها عن ناظرى. لم أكن أصدق ذلك، وبعد دقيقة واحدة وجدت صناديق البضاعة التى كانت تحملها المدمرة من ميناء موبيل قد تناثرت حولى، فقطعت الشك باليقين. ظللت أطفو بين صناديق الملابس والثلاجات وبقية أنواع الأدوات المنزلية التى أخذت تتطاير فى الهواء، تختلط فيما بينها، بعد أن ضربتها الأمواج بشدة، وحتى هـذه اللحظة لم أكن قد بلورت فى ذهنى فكرة محددة لما كان يـدور حولـى، ووجدتنى أتشبث، فى رعونة، بأحد الصناديق العائمـة، ثم أخذت أتأمل البحر فى بلاهة تامة، كان جو النهار صـافيا، والأمـواج هائلة تتلاطم بفعل الرياح، والبضاعة قد تـناثرت فـوق سطح الماء، وفيما عدا ذلك لم يكن هناك أدنى دليل على أن كارثة ألمت بسفينة فأغرقتها فى هذا المكان.

وفـى التو طرقت سمعى صيحات على مقربة منى، إنه صـوت خولـيو أمادور حمله صفير الرياح الحاد إلىّ، صوت العـريف الثانى طويل القامة ذى البنية القوية، الذى علا فنادى على أحد رفاقه قائلا:

- أمسك من هناك، من أسفل طوق النجاة.

وفى هذه اللحظة تخيلت الأمر كمن غشاه النعاس العميق برهة من الزمن ثم استيقظ لتوه، فأيقنت أنى لست بمفردى فوق سطح الماء. كان رفاقى على بعد أمتار قليلة منى، يتصايحون، تطفو أجسادهم فوق الماء، أشحذت ذهنى فى سرعة، ولكنى لم أستطع السباحة فى أى اتجاه. أدركت أننا على مسافة تقرب من المائتى ميل من قرطاجنه، ولكن الأمر قد اختلط علىَّ تماما، فلم أعـد أعرف وجهتى. ومع هذا، فما شعرت بالخوف حتى هذه اللحظـة، وهدانـى تفكيرى إلى أنه بمقدورى أن أظل ممسكا بالصـندوق إلـى أجـل غير مسمى، حتى يأتى إلينا من يقوم بإنقاذنـا. ومما هدأ من روعى أننى رأيت بحارين آخرين من حولـى لهمـا نفس ظروفى، وفجأة وقعت عينى على زورق عائم.

لـم يكن زورقا واحدا، بل اثنين مجهزين، يفصل بينهما سـبعة أمتار فحسب، وقد أتيا على غير موعد يحملهما الموج، فـى نفـس الإتجاه الذى تعالت فيه صيحات رفاقى. استبعدت فكـرة أن يقـترب أحدهمـا مـنى، وفـى لحظة، اختفى أحد الزورقيـن، فلـم أعد أراه، وهنا بدأت والحيرة تملؤنى بين أن أغامـر فأسبح صوب الزورق الآخر وبين أن أقر آمنا ممسكا بالصندوق. وقبل أن أترك لنفسى فرصة اتخاذ القرار، سبحت صـوب الـزورق الآخر، الذى وقع نظرى عليه، فرأيته يبتعد

عنى شيئًا فشيئًا، بدأت أسبح مدة ثلاث دقائق، وتوارى الزورق عــن عينى برهة من الزمن، ورغم ذلك فقد حرصت على ألا أفقد وجهتى، وفجأة عثرت عليه بجانبى أثر ضربة شديدة نتيجة الموج. إنه زورق أبيض، ليس به شئ كبير، أمسكت بمشربيته بقــوة محاولا أن أقفز إلى داخله. حاولت، ثم أعدت الكرة مرة أخــرى ففشلت. ولكن الحظ حالفنى فى المرة الثالثة. ها أنا قد أصــبحت داخــل الــزورق، ألهث، وقد لفحنى النسيم القارس المتوالى بسياطه، فانتصبت فى عناء تام، وهنا رأيت ثلاثة من رفاقى حول الزورق، يحاولون اللحاق بى.

تعرفــت علــيهم فــى الحال هم: إدواردو كاستيو، أمين المخزن، رأيته متعلقا أشد التعلق بعنق خوليو أمادور كاربايو، الذى كان يرتدى طوق النجاة، حيث كان فى نوبة حراسته وقت وقــوع الكارثة. ظل يصيح قائلا: "أمسك بشدة ياكاستيو". كانا يــبعدان عــنى مســافة عشرة أمتار، وقد طفت أجسادهما بين البضاعة المتناثرة.

وعلــى الجانب الآخر كان لويس رينخيفو يطفو بجسده فــوق المــاء، لقد رأيته قبل ذلك بدقائق معدودة داخل المدمرة يــرفع الســماعات بيده اليمنى محاولا إظهار نفسه، كان هادئا كعادتــه، واثقــا، وباعتباره بحارا بارعا ظل يردد من قبل أن الــدوار سيصــيب البحر أولا، فقد قام بنزع قميصه عنه حتى يســبح فى حرية تامة، ولكنه فقد طوق النجاة لو لم أره لعرفته بصوته حين صاح قائلا:

– أيها البدين، لتجدف فى هذا الاتجاه.

وفى عجالة، وجدتنى أمسك بالمجدافين محاولا الاقتراب مـنهم. رأيت خوليو أمادور، وقد تعلق إدواردو كاستيو بعنقه، يقـترب مـن الـزورق، بعيدا عنهما وقعت عيناى على رفيق رابع، رامون إيريرا، بدا صغيرا، محطما، يلوح لى بيديه، وقد تعلق بأحد الصناديق.

ثلاثة أمتار فقط:

لـو كنـت متخذا قرارا أنقذ به رفاقى لجهلت تماما بمن أبـدأ، ولكنـنى عندما رأيت رامون إيريرا، صاحب مشاجرة موبـيل، وفتى أرجونا المرح، الذى كان يصحبنى فى مؤخرة السـفينة قـبل دقـائق من الآن، بدأت أجدف يائسا كان طول الـزورق يقارب المترين، ووجدته ثقيلا للغاية وسط هذا البحر الهـائج، وهنا أصبح علىَّ أن أسبح ضد التيار. أتذكر أننى لم اسـتطع دفعـه مـترا واحدا. وفى هذه اللحظة تملكنى اليأس، نظـرت حولى مرة أخرى، فرأيت رامون إيريرا قد اختفى من فـوق سطح الماء. لم يعد هناك سوى لويس رينخيفو الذى ظل يسبح فى ثقة تجاه الزورق. كنت على يقين من أنه سيلحق به، فقـد كنت أسمع له شخيرا كالبوق أسفل سريرى، وكذلك كنت مقتنعا بأنه أشد من البحر فى صفائه.

وعلـى العكس من هذا، فقد كان خوليو أمادور يصارع،

جنـــبا إلـــى جنب، مع إدواردو كاستيو حتى لا يفلت من عنقه، كانا يبعدان عنى مسافة ثلاثة أمتار، وكان بإمكانى أن أمد لهما مجدافـــا يمسكان به إذا ما اقتربا أكثر. وفى هذه اللحظة هبت موجة أطاحت بالزورق فى الهواء، ورأيت - فى المكان الذى بلغت فيه الموجة ذروتها- سارى المدمرة يتوارى. وحينما حط المـــوج الزورق، توارى خوليو أمادور عن الأنظار يحمل معه إدواردو كاســتيو فى عنقه، لم يكن هناك سوى لويس رينخيفو على مسافة مترين، ومازال يسبح فى هدوء تجاه الزورق.

وهنا. أقدمت على عمل أمر غير معقول، لا أدرى كيف فعلته: كنت على يقين من أن لويس رينخيفو لن يستطيع التقدم، ورغـــم ذلـــك فقـــد أدخلـــت المجداف فى الماء لأوقف حركة الـــزورق، وأثبـــته فى مكانه. بدا لويس رينحيفو منهكا، توقف لحظـــة، ثـــم رفع يده مثلما فعل حينما كان يمسك بالسماعات. وصاح مرة أخرى قائلا لى:

- ليكن تجديفك تجاهى، أيها البدين.

كانـــت الرياح تهب آتية من نفس الاتجاه، فصحت قائلا لـــه: لـــيس بمقدورى أن أجدف ضد الريح، وأن عليه أن يبذل أقصـــى مـــا فـــى وسعه، ولكن بدا لى أنه لا يسمعنى. توارت صـــناديق البضـــائع، بدأ الموج يضرب الزورق بشدة، فجعله يـــرقص من جانب إلى آخر. فى وقت ما، رأيتنى على مقربة مـــن لويس رينخيفو، لا يفصل بينى وبينه سوى خمسة أمتار،

وفجأة لم أره أمامى، إلا أنه عاد للظهور فى جانب آخر، يحدوه الأمل، وكلما أتت موجة غاص فى الماء حتى لا تجرفه بعيدا. وهنا، وقفت رافعا المجداف عاليا، أنتظر من لويس رينخيفو أن يقــترب بــالقدر الكــافى الذى يمكنه من اللحاق به. وفى هذه اللحظـــة، رأيته وقد أصابه إعياء شديد ويأس قاطع، ثم أدركه الموج فكان من المغرقين. وهنا صاح ينادينى:

- أيها البدين... أيها البدين.

حاولــت التجديف جاهدا، ولكن دون جدوى، مثلما حدث فـــى المــرة الأولـــى، بذلت قصارى جهدى حتى يلحق لويس رينخــيفو بــالمجداف، إلا أن الــيد التى كانت قبل ذلك بدقائق معدودة ترتفع عاليا لتحول بين السماعات وبين أن تغوص فى المــاء قــد غاصت، فى هذه اللحظة إلى الأبد، لا يفصل بينها وبين المجداف سوى مسافة بسيطة، أقل من مترين..

تســمرْتُ واقفــا، أرفع المجداف عاليا حتى أحافظ على توازن الزورق، بقيت فى هذا الوضع مدة، لا أدرى كم تكون، أخذت أتحسس الماء وأرقبه بعناية، لعل واحدًا منهم يطفو فوق سطح الماء بين لحظة وأخرى، إلا أن البحر بدا نظيفا، واشتدت الــرياح، تلفــح قميصـــى فـــى صوت كعواء الكلب، وتوارت البضاعة، شاهدت سارى السفينة من بعيد، ففهمت أنها لم تغرق بعــد، كما توهمت فى بادئ الأمر، هدأت نفسى بعض الشىء، وذلــك لظنى أنهم سوف يخرجون بحثا عنى بعد دقيقة واحدة.

داخلـــنى اعـــتقاد بأن أحد رفاقى قد لحق بالزورق الآخر، فما هـــناك مـــن ســـبب لعـــدم لحاقهم به، لم يكن الزورقان بكامل عدتهما، شأنهما فى ذلك شأن الزوارق الأخرى بالمدمرة، والتى بلغت فى مجموعها ستة زوارق، بالإضافة إلى مراكب الصيد. تصورت أن بعض رفاقى قد لحق بالزوارق الأخرى، كما هو طبـــيعى جدا، كما لحقت أنا بزورقى، ولعل المدمرة تبحث عنا جميعا.

وفجـــأة أدركـــت أن الشـــمس ســـاطعة، شمس الظهيرة الصـــافية فى حرها ولونها المعدنى. نظرت، ولمّا أستعيد قواى كاملة بعد، إلى الساعة، فوجدتها الثانية عشرة تماما.

وحـدى:

فى آخر مرة سألنى فيها لويس رينخيفو عن الساعة بينما كنا على متن المدمرة كانت الحادية عشرة والنصف تماما، وها أنا قد نظرت إليها ثانية فوجدتها الثانية عشرة إلا عشر دقائق، ولمّـــا تقـــع الكارثـــة بعد، وحين دققت النظر إليها وأنا داخل الـــزورق، وجدتها الثانية عشرة تماما. كنت أتخيل أن ما حدث قـــد مـــر عليه زمن بعيد، غير أن الوقت كان قصيرا جدا بين اللحظـــة الـــتى رفعت فيها ساعتى فى المرة الأخيرة وأنا فى مؤخرة السفينة وتلك التى كنت فيها بالزورق، عشر دقائق فقط. حاولـــت أن أنقـــذ رفاقى دون جدوى، وقفت فى مكانى جامدا أرقب البحر الخالى، وأستمع إلى صفير الريح الحاد، أفكر فى

عمليات الإنقاذ التى لن تبدأ لانتشالى من الماء إلا بعد ساعتين أو ثلاث ساعات على أقل تقدير.

ساعتان أو ثلاث ساعات، هذا ما توقعته، ولكن كان الوقت طويلا، طويلا وأنا أتلفت حولى فأجد نفسى وحيدًا وسط مياه البحر، ورغم ذلك فقد حاولت الاستعانة على هذا بالصبر، كنت بلا طعام أو شراب فبدأت أفكر فى حرقة العطش قبل حلول الثالثة. بدأت الشمس تلفح رأسى، تحرق جلدى، حتى تركته جافا صلدا، فقدت قبعتى قبل أن تطيح المدمرة بجسدى، فعدت لأبلل رأسى ثم جلست على حافة الزورق، أنتظر من يأتى إلىَّ لينقذنى.

وفى هذه الأثناء أحسست ألمًا فى ركبتى اليمنى، كنت أرتدى بنطلونا أزرق اللون، صُنع من قماش قطنى سميك، أصابه البلل، وعانيت كثيرا حتى أرفعه إلى ما فوق الركبة، وعندما فزعت فزعا شديدا لذلك الجرح الغائر الذى أُصبت به أسفل ركبتى، جرح مستدير كهيئة الهلال، لا أدرى له سببا، هل اصطدمت بحافة السفينة أم أصابنى ذلك الجرح عندما هويت إلى مياه البحر، إننى لا أذكر شيئا سوى شعورى بالألم الناجم عنه ساعة أن تأهبت للجلوس داخل الزورق. كان الجرح يؤلمنى بعض الشىء، ولكنه لم يعد ينزف دما، وبدا جافا بفعل ملوحة مياه البحر.

لم أعد أفكر فى شيء، وفجأة، دون أن أدرى، وجدتنى

أفـــتش جـــيوبى لأحصى ما فيها، رغبة منى فى معرفة كل ما يلازمـــنى فى وحدتى هذه وسط مياه البحر. عثرت، فى المقام الأول، على ساعتى التى تعمل فى دقة متناهية، كنت أنظر إليها كـــل دقيقتين أو ثلاث دقائق، كما وجدت خاتما ذهبيا، كنت قد اشـــتريته العـــام الماضى من قرطاجنه، وسلسلتى، تتدلى منها ميدالـــية عـــذراء الكارمـــن، والـــتى ابتعتها من أحد البحارة بقرطاجـــنه بخمســـة وثلاثين بيزو(١٠)، ولم أعثر فى جيبى إلا على مفاتيح دولابى الذى كان بحوزتى بالمدمرة وثلاث بطاقات تحمل اسم أحد محلات موبيل، حصلت عليها ذات يوم من شهر أبـــريل خرجت فيه لأبتاع شيئا بصحبة مارى أدرس. لم يكن هناك ما يشغلنى، فبدأت أسرّى عن نفسى بقراءة البطاقات حتى يحيـــن وقـــت إنقاذى. لا أدرى لماذا بدت لى البطاقات كشفرة يرســـلها الغـــرقى فى زجاجة عبر مياه البحر، ولو كانت تلك الـــزجاجة فى يدى لما رست لعبة الغريق، وأدخلت بها إحدى الـــبطاقات، لأجد شيئا أتسلى به فى هذه الليلة، ثم أعود فأقصه على أسماع أصدقائى فى قرطاجنه.

الفصل الرابع

ليلتى الأولى وحيدًا فى مياه الكاريبى

فــى الــرابعة مساء سكنت الرياح، ولم أكن أرى سوى المـــاء والســماء، ومـــا كانت هناك من علامات إرشادية قط، مضى وقت يربو على الساعتين، دون أن أدرى أن الزورق بدأ يأخذ طريقه عبر الماء. فمنذ اللحظة التى وجدتنى داخله، رأيته يــتحرك فى خط مستقيم، تدفعه الرياح فى سرعة لم أكن أقدر على مثلها لو دفعته بالمجداف. لم أكن أعلم شيئا عن وجهتى، ولا عــن مكانى، ولم أدر ما إذا كان الزورق يشق الماء متجها إلـــى الشـــاطئ أم إلى داخل الكاريبى. رغم أن هذا الاحتمال الثانى قد رجحت كفته عندى " فمن المستحيل، غالبا، أن يقذف اليم شيئا بالساحل قد توغل فى مياهه ما يقرب من مائتى ميل، خاصة إذا ما كان ثقيلا، كزورق يحمل إنسانا داخله.

وفـــى تلك الأثناء، رجعت بذاكرتى إلى الوراء، فتابعت رحلـــة الســـفينة دقـــيقة بدقيقة، وهل حدث اتصال بينها وبين قرطاجنة، تم فيه الإرشاد عن المكان الحقيقى الذى شهد وقوع الكارثـــة، لابد أن ذلك قد حدث، وأنهم قد خرجوا على أثر ذلك بحـــثا عنا فى طائرات حربية وأخرى عمودية من أجل إنقاذنا. بـــدأت أحســـب الوقت: سوف تصل الطائرات إلينا فى أقل من ساعة، تجول المنطقة فوق رأسى.

وفى الواحدة مساء جلست داخل الزورق أمعن النظر فى الآفــاق، حللت المجاديف الثلاثة، ثم ألقيت بها داخله حتى أعد نفســى للســير بالــزورق صــوب الجانب الذى ستظهر فيه الطائرات. مرت الدقائق طويلة وعصيبة، ألهبت الشمس وجهى وظهــرى، احترقــت شفتاى ثم تشققت بفعل الأملاح، ما كنت أحس جوعا أو عطشا فى تلك اللحظة، بل كنت أحوج ما أكون إلـــى أن أرى الطائرات بادية فى الأفق. وهنا بدأت أخطط لما ســأفعله وقــتها. عندما ألمح الطائرات أجدف تجاهها، وحينما تحلق فوقى أهب واقفا داخل الزورق ألوح لهم بقميصى. وحتى أعــد للأمــر عدتــه دون أن أضيع دقيقة واحدة فككت أزرار القميص، ثم جلست على حافة الزورق أتفحص الأفق من جميع جوانبه، فما كنت أعلم الاتجاه الذى ستطلع علىَّ الطائرات منه.

كانــت الساعة الثانية، ومازالت الرياح تشتد وأنا أستمع إلـــى عوائها، وفجأة قطعه صوت لويس رينخفيو قائلا: " أيها البديــن: لتجدف فى هذا الاتجاه". كنت أسمعه فى وضوح تام، كمـــا لو كان هناك، على مسافة مترين، يحاول جاهدا أن يلحق بـــالمجداف، ولكنه كان مجرد سراب ناجم عن حقيقة أعلمها؛ فعندما تعوى رياح البحر، وتتكسر الأمواج فوق وهاد الساحل، تــتعالى الأصــوات التى فى ذاكرة الإنسان؛ فتطرق سمعه فى إلحاح محموم: " أيها البدين، لتجدف فى هذا الاتجاه".

وفى تمام الثالثة تسرب اليأس إلى قلبى، ففى هذه الساعة

نفســها ستصــل المدمرة إلى أرصفة قرطاجنه، وعندما يعود الرفاق، وقد غمرتهم سعادة العودة فينتشرون بالمدينة فى دقائق معــدودة، وتوقعــت أن الكــل يتذكرنى فى هذه اللحظة، فزاد حماسى، وتجملت بالصبر حتى تمام الرابعة. لم نتلق أى اتصال تلغرافى من أحد، ولم يأخذ أحد فى حسبانه أننا سقطنا فى مياه الــبحر، ولكن من المؤكد أنهم قد فطنوا إلى أمر كهذا وقت أن رســت الســفينة بالمرفأ؛ حيث يصبح لزاما على جميع أفراد طاقمهــا التجمع فى أعلاها. هذا هو ما توقعت حدوثه فى تمام الثالــثة، علــى أكثر تقدير، وسوف يصدرون الإنذار فى التو، ومهمــا يقــع مــن تأخير فى إقلاع الطائرات، فلاشك أنها قد توجهــت إلى مكان الحادث منذ نصف ساعة، سوف تصل إليه فــى تمام الرابعة، الرابعة والنصف على أكثر تقدير، تحلق فى الســماء فوق رأسى. ظللت أتفحص الأفق حتى سكنت الرياح وأحسســت أن خريــر الماء الأصم اللانهائى يلفنى. وفى تلك الأثناء فقط لم أعد أسمع صياح لويس رينخيفو.

الليلة الكبيرة:

وللوهلة الأولى، بدت لى استحالة أن يظل الإنسان وحيدا على مدى ثلاث ساعات وسط مياه البحر. وفى تمام الخامسة، أى بعد مضى خمس ساعات، وجدتنى أستطيع الانتظار ساعة أخرى. مالت الشمس ناحية الغرب، فاحمر لونها، وهنا أدركت حــدود الجهات الأربع، وحددت الاتجاه الذى ستأتى الطائرات

مــنه. وليّتُ وجهى صوب الجهة التى توهمت أنها تؤدى إلى قرطاجــنة، فجعلت الشمس عن يسارى، وثبت نظرى فى خط مســتقيم، دون أن أحــرك جسدى قيد أنمله، أو يزيغ بصرى لحظـــة واحدة، أو يغمض جفنى حينا، وفى السادسة تألمت من الإعــياء الذى ألم بعينى، غير أننى لم أكف مطلقا عن متابعة النظر، حتى بعد أن حل الظلام، فى صبر جميل حينا، ومتمرد حينا آخر. وهنا أيقنت أننى لن أرى الطائرات فى هذه الأثناء، ولكننى سأرى أنوارها الخضراء والحمراء تزحف نحوى، قبل أن يصــــل إلىَّ أزيز محركاتها. تمنيت أن أشاهد الأنوار، دون أن يخطــر بـــبالى أنهم لن يتمكنوا، وهم بداخل الطائرات، أن يــرونى وأنـــا فـــى ظلمـــة الليل البهيم. وفجأة اكتست السماء بالحمرة، ولم أزل أترقب ما يأتى به الأفق، ثم تحول اللون إلى البنفســجى القـــاتم. لـــم أزل أنظـــر، فرأيت، على جانب من الـــزورق، أول نجم قد بزغ لتوه، ثابتا ومربعا، كماسة صفراء وسط سماء اكتست بلون خمرى. فسرّت ظهور هذا النجم على أنـــه مجـــرد علامة، وبعده أرخى الليل البهيم سدوله على مياه البحر.

وجدتـــنى غارقـــا فى الظلمات لا أقوى على رؤية كفى، فتولد انطباع أولى داخلى بأننى لن أستطيع كبح جماح الخوف، وهـــنا استمعت إلى ضجيج قادم من جانب الزورق، على أثر ارتطام الماء به، فأدركت أنه مازال يشق طريقه فى الماء، فى بـــطء ولكـــن بغـــير عناء، ولما أصبحت غارقا فى الظلمات،

أدركت أننى لم أكن أشعر بالوحدة أثناء النهار، وإنما أحسست بهــا أكثر فى ظلمة الليل داخل الزورق الذى لم أعد أراه، بل أصبحت أحس به ينزلق أسفل منى فى هدوء فوق سطح البحر الثخيــن العامــر بغريب الحيوانات. وحتى أخفف عنى وطأة الشعور بالوحدة، نظرت إلى ساعتى، فوجدتها السابعة إلا عشر دقائق، وبعد مضى وقت طويل، يتراوح بين ساعتين أو ثلاث أصــبحت السابعة إلا خمس دقائق، وبعد أن بلغ عقرب الساعة رقــم الثانــية عشرة أصبحت السابعة تماما، وامتلأت السماء بالــنجوم. أحسســت بأنه قد مضى وقت طويل، حتى ليوشك الصــبح أن يتــنفس ومازلــت أفكــر، والــيأس يتملكنى، فى الطائرات.

شعرت ببرد يداعب جسدى؛ حيث من المستحيل أن يظل جســد المــرء جافا داخل الزورق لدقيقة واحدة، خاصة إذا ما جلــس علــى أحد جانبيه؛ لأن نصف جسده يظل داخل الماء يشــغل أرضية الزورق التى تتدلى مثل سلة تحت سطح الماء مســافة تزيد على نصف المتر. وفى الثامنة ليلا بدا الماء أقل بــرودة مــن الهواء، وأدركت أن وجودى على متن الزورق سيكون بمثابة حماية لى من أخطار الحيوانات، التى لا تستطيع الاقتراب من شبكته البتة، هذا هو ما تعلمناه فى المدرسة وآمنا بــه، عندما كان المعلم يشرح بيانا على أحد الزوارق البسيطة كــنموذج لــنا، ويجلس الواحد منا على أريكة، فى تمام الثانية ظهــرًا، وســط أربعيــن من رفاقه، ولكن عندما يتعلق الأمر

بإنســـان قـــابع بمفرده، فى الثامنة ليلا، وسط مياه البحر، فاقد الأمل، فإن كلمات المعلم تلك تفقد منطقها تماما. كنت على يقين مـــن أن نصف جسدى أصبح فى عداد عالم غير عالم الإنس، عـــالم الحيوانات البحرية. ورغم الهواء القارس الذى أخذ يلفح قميصـــى، لم تواتنى الجرأة فأترك مكانى فوق حافة الزورق. وحســـبما قـــال معلمنا، فإن حافة الزورق تعد أقل جنباته أمنا، ورغـــم هذا كله، فقد شعرت بأننى فى مكان أبعد ما يكون عن الحـــيوانات. تلك الحيوانات الضخمة، المجهولة، التى سمعتها تمر خفية بجوار الزورق.

عـــثرت فـــى هـــذه الليلة، وبعد عناء شديد، على "الدب الأصغر"(١١)، تائها وسط هالة من نجوم تشابكت فيما بينها غاية التشـــابك. لم أر فى حياتى نجوما بهذه الكثرة؛ حيث تعذر على العيـــن أن تـــرى فى السماء – على اتساعها– مكانا خاليا من النجوم. وفى اللحظة التى أدركت فيها "الدب الأصغر" فى مكانه لـــم يصبح بمقدورى أن أتحول ببصرى عنه إلى جهة أخرى، وبينما كنت أنظر إليه تناقص عندى الشعور بالوحدة، لا أدرى لماذا. كنا نجلس فى أوقات فراغنا وقت السحر فوق معبر منجا بقرطاجنه، يشدو لنا رامون إيريرا بصوته، يقلد المغنى دانييل سانتوس، على أنغام الجيتار التى يعزفها أحد الحضور.

كنـــت دائمـــا ما أكتشف الدب الأصغر وأنا أجلس على حافة الصخرة هناك، أما فى هذه الليلة، بينما كنت أجلس على

حافـــة الـــزورق، شـــعرت بأننى أجلس فوق معبر منجا، وأن رامـــون ايريـــرا يجلس إلى جوارى، يغنى على أنغام الجيتار، والـــدب الأصـــغر يحلق فى السماء على مسافة مائتى متر من الأرض. تخيلت فى هذه اللحظة أن هناك شخصا غيرى يجلس نفس جلستى فى قرطاجنه، يتأمل الدب الأصغر مثلما أفعل وأنا فى موقعى هذا من البحر، فقلل هذا من إحساسى بالوحدة.

لـــم تشـــهد الليلة الأولى التى أمضيتها وسط مياه البحر أحداثا على الإطلاق، فتطاول ليلى. من المحال أن يصف المرء ليلة قضاها فى زورق، وكل شئ هادى من حوله، وهو يتوجس خيفة من حيوانات البحر، يحمل فى يده ساعة براقة يتعذر عليه أن يغمض عنها طرفه لحظة واحدة، وفى ليلة الثامن والعشرين مـــن فبراير، أول ليلة أمضيتها وسط مياه البحر، أخذت أنظر إلـــى الســـاعة، دقـــيقة بعد أخرى. كان ذلك نوعا من العذاب، فقـــررت فـــى يأس أن أنزعها من يدى، وأحتفظ بها فى جيبى حـــتى لا أصـــبح أسيرا لها. أصبحت الساعة التاسعة إلا الثلث لـــيلا، وهـــنا بدا لى من الصعب أن أتحمل ما أنا فيه، لم أكن أشـــعر بـــالجوع أو العطـــش، بينما كنت موقنا بأننى سأحتمل الموقـــف حـــتى الغـــد، وقت مجىء الطائرات، كنت سأصاب بالجـــنون مـــن شدة نظرى إلى الساعة، وأصبحت أسير القلق، فنزعت الساعة عن معصمى وأدخلتها فى جيبى، ولما أمسكت بها فى يدى، رأيت من الأفضل أن ألقى بها فى مياه البحر، ثم تـــرددت للحظـــة، تملكنى بعدها خوف رهيب. فبدون الساعة

يتفاقم شعوري بالوحدة، وهنا أعدتها إلى مكانها فى معصمى ثم حدجــتها بنظرة ثاقبة بين دقيقة وأخرى، اختلست خلالها نظرة فى الآفاق أنتظر قدوم الطائرات إلى أن تعبت عيناى.

وبعــد الثانــية عشرة، وددت لو أنى بكيت، فما اكتحلتُ بالنوم ثانية واحدة، بل لم أحاول ذلك على الإطلاق، وأتى وقت الســحر، فبدأت أفتش عن الأضواء المنبعثة من السفن، والأمل يملؤنــى مــثلما كنــت أتطلع بالأمس إلى الأفق أنتظر مطلع الطائرات. ظللت أتأمل البحر لساعات طويلة، كان هادئا، واسع الأرجاء، ساكنا، لكننى ما رأيت ضوءًا غير ضوء النجوم. بدا جسدى لامعا بسبب أشعة شمس الأصيل التى لفحت جلدى.

وبحلــول البرد زادت حرقة الجلد، وبدأت أحس ألما فى ركبتى اليمنى منذ أن تجاوزت الساعة الثانية عشرة، وشعرت كما لو أن الماء قد اخترق جلدى فبلغ عظامى، ولكننى لم أكن أهتم بهذا كله، فما كنت أفكر فى جسدى قدر تفكيرى فى أنوار السفن؛ فأنا، فى هذه العزلة اللانهائية، وضجيج البحر المظلم، لســت فى حاجة إلا إلى شعاع ينبثق من مصباح إحدى السفن، أطلق بعده صيحة تحدث دويًا يُسمع على أبعد مدى.

نور كل يوم:

بزغ الفجر فى غير بطء، على عكس ما يقع على سطح الأرض، بــدت الشمس شاحبة، ثم اختفت النجوم الأولى، بينما

أحـــدق فى الساعة مرة وفى الأفق مرة أخرى. تحددت أمامى ملامـــح أطراف البحر فى غاية الوضوح، أمضيت حتى الآن اثنـــتى عشرة ساعة، ورغم أننى لا أصدق أن ذلك ممكنا، فمن المســـتحيل أن يكـــون اللـــيل طويلا كالنهار. والحق أن المرء يحتاج لقضاء ليلة فى مياه البحر، فى زورق، يحدق فى ساعته، حتى يعلم يقينا أن الليل يفوق النهار طولا، وأنه عندما تتكشف خيوط الفجر فجأة يحس المرء تعبا لا حدود له.

هذا هو ما حدث لى فى أول ليلة أمضيتها بالزورق، ولما أن طلع الفجر ما عدت أهتم بشىء على الإطلاق، فلم أفكر فى الطعام أو الشراب، لم أفكر فى شئ قط حتى هدأت الريح، وبدا سطح البحر أملس ذهبيا، لم يغمض لى جفن لحظة طوال الليل، ورغـــم هـــذا فقد وجدتنى كمن يستيقظ بقوة من نومه، مددت جســـدى داخـــل الزورق، فأحسست وجعا ألمّ بعظامى وجلدى. أضـــحى الـــنهار بـــراقا باردا، وهبت الريح فلفنى صفيرها، اســـتعدت قواى، ولم أفقد الأمل، فأحسست حينئذ، ولأول مرة منذ عشرين عاما، هى عمرى كله، بسعادة غامرة.

لـــم يـــتوقف الـــزورق عـــن الزحف، غير أنه لم يكن بمقـــدورى أن أحصى المسافة التى قطعها أثناء الليل. لم يتغير شئ فى الأفق، كما لم أكن قد تحركت من مكانى قدر سنتيمتر واحد، وفى تمام السابعة صباحا وجدتنى أفكر فى المدمرة، فهذا وقت كنا نتناول فيه فطورنا، رأيتنى أفكر فى رفاقى المجتمعين

حول المائدة يأكلون التفاح، وبعد أن يفرغوا منه يحملون إليهم البـيض، ثم اللحم، فالخبز، فالقهوة، فاللبن، وهنا غمر اللعاب فمي وشعرت بانتاءة خفيفة في معدتي، فرأيت من الصواب أن أطـرح عـني هذا الفكر جانبا، فانغمست داخل الزورق حتى عـنقي. أحسست أثر الماء البارد في ظهري الملتهب، فازددت قـوة واسترحت. ظللت هكذا زمنا طويلا، منغمسا، أسأل نفسي عن سبب ذهابي إلى مؤخرة السفينة في صحبة رامون إبريرا، بدلا من أن أظل راقدا في سريري. استرجعت أطراف المأساة دقيقة بدقيقة، فوجدت ذلك بلاهة مني، فما كان هناك من سبب قـط لأصـبح واحـدا من بين الضحايا؛ فما كنت ضمن أفراد الحراسة، وما كان من المفروض أن أتواجد فوق سطح السفينة. وأخـيرا، هديت إلى أن ذلك الذي حدث يعد من نحس الطالع، وشعرت بالضيق من جديد، غير أنني هدأت من روعي بنظري إلى الساعة، كان النهار يزحف سريعا، وبلغت الساعة الحادية عشرة والنصف.

نقطة سوداء في الأفق:

أقـبل وقـت الظهـيرة، فبدأت أفكر ثانية في قرطاجنه، ورأيت أنه من المستحيل ألا يكون قد نبههم أحد لأمر اختفائنا، وندمت لأنني لحقت بالزورق، فلولا ذلك لتم إنقاذي مثل رفاقي، فأنـا الوحـيد الـذي ظـل عائما فوق سطح الزورق، لا شئ يصـحبني سوى الريح الذي كان يدفعه، وما كان لحاقي به إلا من سوء طالعي.

وهـــنا، تخيلت، ولمّا تكتمل الفكرة عندى بعد، أنى أرى نقطـــة فـــى الأفق، فاعتدلت ثم وجهت نظرى إليها فى ثبات، فرأيتها تتحرك وقد اكتست بالسواد، كانت الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق، وفى لمح البصر امتلأت السماء بنقاط مضيئة، رمقـــتها بإمعـــان شـــديد، فوجدت النقطة السوداء تتابع سيرها مباشرة صوب الزورق، ثم بدأت هيئتها تتكشف لى فى وضوح تـــام. بدت، وهى تقترب، فى عليائها، زرقاء مضيئة، يكاد سنا بـــرقها يذهـــب بالأبصار، كما تكشفت لى أكثر بين العديد من الـــنقاط المضـــيئة الأخرى. كان عنقى يؤلمنى، ولم تعد عيناى تحـــتملان البريق القادم من علياء السماء، غير أننى دأبت على متابعـــته، كان براقا وسريعا، يقصد مكان الزورق مباشرة. لم أشعر بسعادة فى تلك الأثناء، ولا حتى بعاطفة جياشة، انتابتنى صـــحوة كبـــيرة وهدوء غير عادى، فقمت واقفا فى الزورق، بينما الطائرات تقترب منى رويدا رويدا. نزعت القميص عنى وأخـــذت أهيئ نفسى للحظة المناسبة التى ألوح فيها به حسب درايـــتى بهذا الأمر. أمسكت بالقميص فى يدى، ثم مرت دقيقة ودقيقـــتان، ومازلـــت أنتظر اقتراب الطائرة منى أكثر فأكثر، كانت تتجه مباشرة صوب الزورق، فرفعت ذراعى وبدأت فى تحريك قميصى. هاجت الأمواج فأحدثت ضجيجا أصم الآذان، ورغـــم ذلـــك فقد طرق سمعى صوت آخر، تزايد رنينه شيئا فشيئا؛ إنه الأزيز المنبعث من محركات الطائرة.

الفصل الخامس

كان لى صديق على متن الزورق

ظللـــت ألوح بقميصي هذا مدة خمس دقائق حتى تملكني الـــيأس، وفجأة تبين لي ما وقعت فيه من خطأ: لم تكن الطائرة تتجه صوب الزورق، وعندما رأيت النقطة السوداء تخيلت أنها تمـــر فـــوق رأسي، غير أنها مرت بعيدا جدا، ثم حلقت على ارتفـــاع جعل من الصعب عليهم رؤيتي من خلاله، وهنا ظلت الطائـــرة تـــتجول فـــي الأفق مدة طويلة، ثم عادت أدراجها، فـــتوارت عـــن الأنظار في نفس المكان الذي ظهرت منه في علـــياء الســـماء. مازلت واقفا بالزورق، تلفح الشمس المحرقة جســـدي، وأرقـــب النقطة السوداء، دون أن أفكر في شئ على الإطـــلاق، حـــتى اختفت من الأفق تماما. وهنا لم يكن أمامي سوى أن أجلس في أرضية الزورق، وأحسست أن سوء الحظ يلازمـــني، ولكنني لم أفقد الأمل بعد، فبدأت أتخذ الاحتياطات الواجبة حتى أحمي نفسي من أشعة الشمس، حاولت جاهدا، في المقام الأول، أن أبعد رئتي عن تأثير الشمس، فقد كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا، وها أنا أكمل أربعا وعشرين ساعة داخل الـــزورق، اضطجعت على حافة الزورق، موليا وجهي شطر الســـماء، وقـــد غطيته بقميصي الرطب. ما كان لي أن أحاول الـــنوم في ذلك الوقت، وأنا أدرك مدى الخطر الذي يهددني لو خلـــدت إلـــى الـــنوم علـــى حافة الزورق. عدت بذاكرتي إلى

الطائــرة، لست على يقين من أنها خرجت بحثا عنى، وما كان بوسعى أن أحدد هويتها.

وحيــنما كنــت أتبوأ مقعدى من حافة الزورق، شعرت بعطــش يعذبنى، شعرت بجفاف فى حلقى ولزوجة فى لعابى، ففكــرت فى أن أتناول شربة من ماء البحر، ولكن سرعان ما عدلــت عــن فكرتى هذه لما فيها من ضرر محقق، وقلت فى نفســى، بوســعى أن أرتشف من الماء فيما بعد، وفجأة سمعت صــوتا يــرن فى أذنى فأنسانى ما كان بى من ظمأ، إنه أزيز الطائرات الذى طغى على ضجيج الموج.

تأثرت بما سمعت، فوقفت داخل الزورق، وبعدها اقتربت الطائــرة من نفس مكان سابقتها، غير أن هذه كانت تتجه نحو الزورق مباشرة، ولما وجدتها تمر فوق رأسى، بدأت ألوح لها بقميصى، لكنها كانت تحلق فى علياء السماء، ثم قطعت البحر طــولا، وذهبــت، ثم توارت عن الأنظار، أكملت جولتها بعد ذلك، فرأيتها- عرضا- تعلو فوق الأفق، تطير فى نفس الجهة التى قدمت منها، فقلت فى نفسى: "إنهم يمشطون المنطقة حاليا بحــثا عــنى "، ثم بقيت أتبوأ مقعدى من حافة الزورق، أمسك بالقميص فى يدى، فى انتظار أن تطلع علىَّ طائرة أخرى.

وهنا أصبح واضحا لدى أن الطائرات تظهر وتختفى من نفــس المكان، وهو ما يعنى أن اليابسة هناك. ثم أدركت على الفــور إلــى أية جهة أيمم وجهى، ولكن كيف؟ فمهما تقدم بى

الـــزورق طـــيلة اللـــيل، فما من شك فى أنه مازال يبعد عن الشـــاطئ كثيرا. لقد أصبحت أدرك بالفعل وجهة الأرض، غير أنـــنى لا أدرى كم من الوقت سأستغرق إذا ما قمت بالتجديف تجاههـــا، وقـــد أخذ جلدى يتشقق بفعل الشمس، والجوع يجعل معدتى تتقلص فتؤلمنى، والعطش يجفف حلقى. وهاهو صدرى أصبح ضيقا حرجا كأنما أصعّد فى السماء.

وفـــى تمام الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة، وصلت طائرة ضخمة سوداء اللون، زودت بمعابر تسهل مهمة هبوطها فـــوق سطح الماء، لم أكن متنبها لحالة وصولها بالقدر الكافى، عـــلا أزيزها ثم مرت مسرعة فوق رأسى، فكاد قلبى أن يقفز مـــن صدرى، رأيتها فى وضوح تام؛ حيث كان النهار صافيا، يتـــيح الفرصة لأى إنسان أن يرى فى جلاء تام رأس أى فرد يطـــل برأســـه مـــن كابينة الطائرة، محاولا أن يتفحص البحر بـــنظارة مـــزدوجة ســـوداء اللون، حلقت الطائرة على مسافة منخفضـــة فاقتربت منى أكثر، إلى أن أحسست خفقان جناحيها بقـــوة يلفـــح وجهـــى، نظرت إليها فقرأت حروفا طبعت على جـــناحها تحدد هويتها؛ إنها طائرة تابعة لقوات حرس السواحل المتمركزة فى منطقة القناة.

كانت الطائرة تهتز أثناء تحليقها، تباعدت عنى إلى داخل الكاريـــبى، وهـــنا أيقنـــت أن الرجل الذى كان يستطلع البحر بنظارته قد رآنى وأنا ألوح بقميصى: "لقد عثروا علىّ"، صحت

فرحا، وأنا مازلت ألوح بقميصى. ومن هول ما أصابنى رحت أقفز مرات ومرات فى حركة جنونية داخل الزورق.

إنهم رأونى:

وقبل مرور خمس دقائق، عادت الطائرة السوداء نفسها تمر فى الاتجاه المعاكس، تحلق على ارتفاع مماثل لارتفاع المرة الأولى، كانت تطير مائلة على جانبها الأيسر، فرأيت الرجل الذى كان يتفحص البحر بنظارته بوضوح تام، رأيته يطل من النافذة، فبدأت ألوح بالقميص مر ة أخرى، وكلى أمل، بدأت أحركه فى هدوء، حركة من لا يطلب النجدة، بل من يؤدى تحية شكر من القلب لأولئك الذين اكتشفوا مكانه.

رأيت الطائرة تقترب من سطح البحر، كلما تقدمت. ظلت تطير مدة دقيقة واحدة فى خط مستقيم، تكاد تتساوى ومنسوب المياه، فظننت أنها ستهبط فوق الماء. ولهذا فقد أعددت العدة لأجدف نحو مكانها الذى ستهبط فيه، إلا أنها عادت لترتفع مرة أخرى، ثم دارت دورتها مارة فوق رأسى *ثالثة، وهنا أحسست باليأس، فتوقفت عن تحريك القميص،* ظللت أنتظر إلى أن مرت من فوق الزورق فلوحت لها فى إشارة خفيفة، ثم انتظرت مرورها بى مرة أخرى، محلقة على ارتفاع منخفض رويدا رويدا، إلا أن ما حدث قد أتى مغايرا لكل توقعاتى: علت الطائرة مسرعة ثم توارت من حيث أتت.

لـــم أنزعج لما حدث، فقد كنت على ثقة من أنهم رأونى؛ إذ من المســـتحيل ألا يــرونى وهـــم يطـــيرون علىمثل هذا الارتفاع المـــنخفض، كما أنهم قد عبروا فوق الزورق مباشرة، وعليه فقد جلست أنتظر فى هدوء تام، وسعادة غامرة، وارتياح لا مثيل له.

انـــتظرت ســـاعة كاملة، ثم بدأت أتوصل إلى نتيجة فى غايـــة الأهمية: لاشك فى أن المكان الذى أطلت منه الطائرات فـــى المـــرة الأولى هو قرطاجنة، أما المكان الذى توارت فيه الطائـــرة السوداء فقد كان فوق سماء بنما، وهنا قدرت أننى لو بـــدأت التجديف فى خط مباشر، منحرفا عن اتجاه الريح بعض الشـــىء فســـوف أصـــل إلى منتجع طولو الصحى على وجه التقريب؛ حيث إنه المكان الذى يتوسط نقطتى اختفاء الطائرات.

حســـبت أنـــه لن تمر ساعة إلا وسيحضرون لإنقاذى، وهـــاهى الســـاعة تمر دون أن يحدث شئ فى البحر الأزرق النظـــيف الهادئ، مضت ساعتان أخريان، ثم ساعة فأخرى، لم أبـــرح خلالها حافة الزورق، ظللت أتفحص الأفق، متوترا، لا يغمض لى جفن. مالت الشمس فى تمام الساعة الخامسة، وبدأ القلق يساورنى، غير أننى لم أفقد الأمل. فقد كنت على يقين من أنهـــم رأونـــى مـــن خلال الطائرة السوداء، ولا أعلم تفسيرا لـــتأخرهم كل ذلك الوقت كى يحضروا لإنقاذى. أصبح حلقى جافـــا، وصـــدرى ضيقًا حرجًا، شردت بذهنى أتأمل وأتفحص الأفق من حولى، وفجأة، قفزت عاليا، لا أدرى لماذا، ثم سقطت

وسط الزورق. وفى بطء شديد، مثلما يحدث فى حالة اصطياد غنيمة، رأيت زعنفة سمكة القرش تنزلق على طول الحافة.

أسماك القرش تأتى فى تمام الخامسة:

أمضيت الآن ما يقرب من ثلاثين ساعة داخل الزورق، وكانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها مثل هذا الحيوان؛ إنـــه سمك القرش، حيوان مفترس وشرس للغاية؛ إنها حقيقة لا يدركهـــا كـــل إنسان. وقد نزل الرعب فى نفسى عندما رأيت زعنفـــته رغـــم أنها بدت حقا أهون جزء يمكن أن يتوقع منه الضرر، فلم تكن تدل فى هيئتها على أنها تشكل جزءًا من جسد حـــيوان، ناهيك عن كونه مفترسا، بدت خضراء اللون، غليظة كقشـــر الشـــجر تماما. لقد أحسست وهى تمر قريبة من حافة الـــزورق، أن لهـــا طعما طازجا مرا، يشبه لحاء الخضراوات تماما: كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة، وغدا البحر هادئا فى المســـاء، وهنا رأيت مجموعة أخرى من سمك القرش تقترب مـــن الـــزورق فى هدوء تام، وأخذت تحوم حوله حتى أرخى اللـــيل ســـدوله، ولـــم يعد هناك أثر لأى ضوء، وهنا تخيلت الأســـماك تطـــوف فـــى الظلام، تشق سطح الماء الساكن بحد زعانفها.

ومـــنذ تلك اللحظة، لم تسول لى نفسى الجلوس قط على حافة الزورق بعد الخامسة مساء؛ مر يوم، أعقبه يوم آخر، ثم

أربعـــة أيام أكسبتنى حنكة كافية عرفت منها أن أسماك القرش من الحيوانات التى تحترم مواعيدها تمامًا، فقد كانت تصل بعد الخامسة بقليل ثم تختفى مع حلول الظلام.

وفـــى المساء، بدت مياه البحر وقد علتها شفافية تنم عن مظهـــر شديد الروعة، فهاهى الأسماك من كل لون تقترب من الـــزورق، أســـماك ضـــخمة: منها الأصفر، ومنها الأخضر، وأخـــرى فـــى هيئة مستديرة وصغيرة الحجم، علت أجسادها خطـــوط حمـــراء، وأخرى زرقاء، سارت الأسماك فى صحبة الـــزورق حـــتى غربت الشمس. طرقت فرقعات الرعد سمعى أحـــيانا، وأحـــيانا أخرى كنت أرى دفعة من الماء قد تخضبت بالدماء، وهى تقفز إلى داخل الزورق، وقطعًا متناثرة من لحم الأســـماك الصـــغيرة هشمتها أسماك القرش، تطفو لبرهة من الزمن فوق سطح الماء المحيط بالزورق، وعقب ذلك مباشرة، رأيت جمعا لا يحصى من الأسماك الصغيرة يعبر مهرولاً فوق الأشلاء المتناثرة، وفى تلك اللحظة وجدتنى مستعدا لأن أشترى نفســـى بأصغر قطعة من تلك البقايا التى خلفتها أسماك القرش وراءها.

أقـــبل لـــيل اليوم الثانى ومازلت وسط مياه البحر. ليل الجـــوع والعطـــش والـــيأس، وهنا أحسست بالضياع بعد أن أصبحت أتشبث، فى إصرار، بذلك الأمل الذى تولد داخلى على أثر ظهور الطائرات. وفى هذه الليلة، أدركت جيدًا أننى إذا ما

تحليت بالإرادة وحافظت على ما تبقى لى من قوة، فسيكون فى ذلك خلاصى مما أنا فيه.

أهالنى أمر قد حدث: أحسست ضعفا ما، إلا أنه لم يصل إلى حد الضنى، فقد أمضيت الآن أربعين ساعة دون طعام أو شـراب، ومـنذ يومين لم تكتحل عيناى بالنوم قط، بعد أن بت ساهرا فى مكان حراستى بالمدمرة قبل ليلة من وقوع الكارثة، ورغـم كل هذا، فقد أحسست بقدرتى على الإمساك بالمجداف لكى أسيّر الزورق.

عـدت أبحث ثانية عن الدب الأصغر فى علياء السماء، حدقـت بناظرى فى الأفق، ثم بدأت أُجدِّف حتى أتجه بالزورق فى طريق مباشرة تجاه الدب الأصغر، إلا أن الريح قد نشطت تهب عكس وجهتى. قمت بتثبيت المجدافين على حافة الزورق، ثـم استأنفت التجديف فى العاشرة مساء، بدأت أجدف واليأس يملؤنـى، ولكننى تابعت التجديف فى هدوء أكثر من ذى قبل، أحدق فى " الدب الأصغر، الذى بدا لى ساطعا، وفقا لحساباتى، فوق جبل لا بويا.

تقدمـت بالزورق شيئا فشيئا، الأمر الذى كنت أحس به عبر خرير الماء ينساب حولى، كلما أعيانى التجديف وضعت المجدافين فى شكل صليب، ثم أملتُ برأسى طلباً للراحة، وبعد حيـن أجدنى أمسك بالمجدافين فى صلابة أقوى وأمل أكبر، ثم أتابع التجديف. كانت الساعة الثانية عشرة مساء.

رفيق الزورق:

فـــى تمـــام الثانية تقريبًا أحسست بالتعب، خارت قواى، فوضـــعت المجدافين فى هيئة صليب أملا فى أن تكتحل عيناى بالـــنوم. وهـــنا تزايد إحساسى بالعطش، فتألمت كثيرا، وازداد تعبى، فوضعت رأسى فوق المجداف استعدادا لاستقبال الموت. وفـــى تلـــك الأثناء رأيت البحار خايمى مانخريس جالسا فوق ســـطح المدمـــرة، يشـــير إلىَّ بسبابته ليرشدنى كيف أتجه إلى الميـــناء.. إنه أحد أقدم أصدقائى فى البحرية، ولد فى بوجوتا، كنـــت أفكر دوما فى رفاقى الذين أعيتهم المحاولة عن اللحاق بالـــزورق. تساءلت: هل لحقوا بالزورق الآخر؟ هل انتشلتهم المدمـــرة، أم أن الطائرات قد عثرت عليهم؟ غير أننى لم أكن أفكـــر علـــى الإطلاق فى خايمى مانخريس، ومع هذا فقد كان يـــتراءى لى كلما أغمضت عينى مرة يشير على باتجاه الميناء مبتســـما، ومرة أخرى وهو يجلس فى حجرة الطعام، تجاهى، وبين يديه طبق من الفاكهة والبيض.

كنـــت أحلـــم فى بادئ الأمر: أغمضت عينى، ثم غلبنى الـــنعاس مـــدة وجـــيزة، ظهر لى فيها خايمى مانخريس على الدوام، كان يظهر فى نفس الموعد، وعلى نفس هيئته الأولى، فقررت فى النهاية أن أتحدث إليه، ولكننى لا أتذكر نوع الأسئلة الـــتى وجهتها إليه فى المرة الأولى، ولا بماذا أجابنى، وكل ما أعرفه أننا كنا نتجاذب أطراف الحديث معا فوق سطح المدمرة،

حتى أتانا الموج فجأة، الموج المشئوم، فى تمام الحادية عشرة وخمس وخمسون دقيقة، وبعد ذلك استيقظت فزعا، وأمسكت، بكل ما أوتيت من قوة، بمشربية الزورق حتى لا أهوى إلى الماء.

وقبل أن يطلع الفجر، بدت السماء أشد ظلمة، ورأيتنى منهكاً لا أقوى على النوم، فلم يغشنى النعاس حينئذ، ووسط هذا الظلام الدامس لم أعد أرى الطرف الآخر للزورق، غير أننى مازلت أحدق بعينى فى الظلام حتى أخترق حجبه، وفى تلك الأثناء رأيت خايمى مانخريس فى أكمل صورة، يجلس على حافة الزورق يرتدى زى العمل: بنطلونا وقميصا أزرقين، وقبعة أمالها قليلا فوق أذنه اليمنى، وقد بدت عليها بوضوح - رغم الظلام الدامس - الحروف التى تحمل اسم المدمرة كالداس وهى: "آ، آر ، تيه".

- أهلا، قلت له بلا فزع:

- من المؤكد أن خايمى مانخريس كان هناك.

- لاشك أنه كان هناك على الدوام.

لو كان ذلك حلما لما كانت له أية أهمية، وأنا على يقين من أننى كنت يقظا، فى كامل وعيى، أستمع لصفير الرياح، وخرير المياه يعلو رأسى، شعرت بالجوع والعطش، دون أن يساورنى شك فى أن خايمى مانخريس كان مسافرا معى على الزورق.

- سألنى: لماذا لم تتناول ما يكفيك من ماء حينما كنت فى السفينة.
- لأننا كنا على مقربة من قرطاجنه- أجبته- كنت نائما فى مؤخرة السفينة بجوار رامون إيريرا.

لم يكن شبحا على الإطلاق. ولم أشعر بالخوف. ولذا فقد كان من الحماقة أن أشعر بالوحدة على سطح الزورق من قبل، غير آخذ فى اعتبارى أن هناك بحارا آخر يرقد بجوارى. لماذا لم تأكل؟ - سألنى خايمى مانخريس. فأجبته بما زلت أتذكره جيدا - لأنهم ماشاؤوا أن يقدموا لى طعاما، لقد طلبت منهم أن يقدموا لى شيئا من التفاح والجيلاتى، فما أجابونى، ولا أعلم أين كانوا يخفون كل ذلك.

لم يرد خايمى مانخريس بشىء مطلقا، وإنما ظل صامتا هنيهة، ثم عاد ليرشدنى إلى طريق قرطاجنه، فأخذت أتتبع ما أشار علىَّ به، فلمحت أضواء الميناء، وعوامات الخليج ترقص فوق سطح الماء. "هانحن قد وصلنا،، وقلت، وأنا أستقرئ الأفق، وأحدق بشدة فى أضواء الميناء غير سعيد أو متأثر، كما لو كنت أعود إليه من رحلة عادية. وهنا طلبت من خايمى مانخريس أن يجدف معى بعض الشىء، فلم أعثر عليه، لقد اختفى، وأصبحت وحيدا بالزورق، وأدركت أننى ما كنت أرى أية أضواء، فما هى إلا أشعة الشمس المشرقة، أشعة الشمس الأولى لثالث يوم من أيام عزلتى وسط مياه البحر.

الفصل السادس

مركب إنقاذ وجزيرة آكلى لحوم البشر

فـــي بدايـــة الأمـــر كنـــت أعدد الأيام بطريقة تلخيص الأحداث: ففي اليوم الأول، الثامن والعشرين من فبراير، وقعت الحادثـــة، أما اليوم الثاني فقد ظهرت فيه الطائرات، وفي اليوم الثالـــث خـــيّم جو من اليأس، ولم يحدث أمر ذو أهمية، وكان الـــزورق يتقدم تدفعه الرياح، حيث خارت قواي ولم أكن أقوى علـــى الـــتجديف، امـــتلأت الســـماء بالغمام في وضح النهار فأحسست بالبرد، وفقدت وجهتي بعد أن توارت الشمس، وكما هو معلوم، فليس الزورق كالسفينة، فهو بلا مقدمة ولا مؤخرة، مـــربع الشـــكل، يســـير بجانبه، يدور حول نفسه بطريقة غير محسوســـة، ولا يعـــرف الإنســـان ما إذا كان الزورق ينطلق خطـــوات إلى الأمام أم يتقهقر إلى الخلف، لعدم وجود علامات إرشادية، وتساوي جوانب البحر، وفي بعض الأحيان كنت أرقد في الجانب الخلفي من الزورق، في نفس الجهة التي يتقدم فيها، أغطـــي وجهـــي بالقميص، وبعد أن استيقظت وجدت الزورق يتقدم حيث كنت أرقد، وما دريت هل غيّر اتجاهه أم كان يدور حـــول نفســـه؟! وبعـــد اليوم الثالث، سارت الأمور على نفس المنوال.

وفي منتصف النهار قررت أمرين: الأول: أن أقوم بتثبيت أحد المجدافين في طرف من أطراف الزورق، حتى أتبين ما إذا

كـــان يتقدم دائما فى نفس الاتجاه. الثانى: أن أحفر بالمفتاح خطا فـــى جانـــب الـــزورق، لأحدد به ما يمر من أيام، ثم أضع لها تاريخا. رسمت الخط الأول، ثم وضعت له رقما هو: "٢٨".

رسمت الخط الثانى برقم: "٢٩"، وفى اليوم الثالث كتبت الرقم "٣٠" إلى جانب الخط الثالث. وهنا، وقعت فى لبس آخر، حيـــث اعتقدت أننا فى الثلاثين من شهر فبراير، بينما الحقيقة هـــى أننا فى الثانى من شهر مارس. لم أتنبه لهذا إلا فى اليوم الرابع، عندما بدأت أشك فيما إذا كان الشهر الذى انقضى لتوه ثلاثيـــن أو واحد وثلاثين يوما. وهنا فقط تذكرت أن الشهر هو شهر فبراير، ويالها من سذاجة، ورغم ذلك، فإن الخوف الذى انتابـــنى هـــو الـــذى ألبسنى رداء الحيرة والشك فى الإحساس بالزمـــن. وعلـــيه، فمـــا كنت على يقين، فى اليوم الرابع، من حساب الأيام التى قضيتها بالزورق. هل هى ثلاثة؟ أم أربعة؟ أم خمسة؟ وسواء أكنا فى شهر فبراير أم لا، فإن الخطوط التى رســـمتها توحى بأننى قد أمضيت ثلاثة أيام، غير أننى لم أكن علـــى يقيـــن من ذلك، كما لم أكن متأكدا مما إذا كان الزورق يـــتقدم أو يـــتقهقر، وقد فضلت أن أترك كل شئ على ما هو علـــيه، لأتجنـــب أى لبس جديد، وفقدت الأمل نهائيا فى عملية إنقادى.

لم أتناول طعاما أو شرابا حتى الآن، ولم أشأ أن أفكر فى مـــثل هـــذا الأمـــر، ثم شحنت ذهنى حتى أرتب أفكارى. كان

جلدى يؤلمنى أشد الألم، بعد أن احرقته الشمس، وتناثرت فوقه الأمـــبولات الجلدية. وكثيرا ما كان معلمنا ينصحنا، ونحن فى القـــاعدة الـــبحرية، بـــألا نعرض رئتينا لأشعة الشمس، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا، فجعلت هذه النصيحة شاغلى: نزعت قميصــــى المـــبلل، ثم حزمت به جسدى من وسطه، حيث كان يؤلمنى كثيرا ملتصقا بجلدى. وها أنا أمضى أربعة أيام عانيت خلالها من شدة الظمأ، حتى بات من العسير علىّ، عضويا، أن أتـــنفس، وأحسست ألما شديدا فى حلقى وصدرى وأسفل عظام الترقوة، فتناولت فى اليوم الرابع قليلا من الماء الأجاج؛ إنه لا يطفـــئ الظمأ، وإنما يصيب بحالة من الانتعاش، ولم أقرر ذلك إلا بعـــد مدة طويلة، فأنا أعلم أنه فى المرة القادمة لابد لى أن أتناول قدرا أقل من ذلك، بعد مرور عدة ساعات.

كانـــت أســـماك القـــرش تظهـــر يوميا فى تمام الساعة الخامســـة، لا تخلف موعدها قط، وتحافظ عليه فى دقة متناهية تدهـــش النفس لها، بدا الأمر كمأدبة أقيمت حول الزورق، فقد أخذت الأسماك الضخمة تقفز خارج الماء، لتظهر بعد لحظات وجـــيزة وقد تقطعت إربا. تخضب سطح الماء بالدم، فأصيبت أسماك القرش بالجنون، فتدافعت اندفاعا أصمّ مسرعة نحو ذلك المـــنظر الدامـــى. غير أنها لم تبدأ محاولاتها حتى الآن لكسر الـــزورق؛ حيـــث كان لونه الأبيض يثير فضولها، وكما يعلم الجميع فإن أسماك القرش تهوى مهاجمة الأهداف البيضاء؛ لأن نظرها قصير لا ترى إلا الأشياء البيضاء أو اللامعة، ولهذا فقد

كان معلمنا ينصحنا قائلا: " عليكم بإخفاء الأشياء اللامعة حتى لا تثيروا فضول أسماك القرش".

مـــا كنت أحمل معى شيئا براقا، وحتى إطار ساعتى فقد كـــان قاتم اللون، ولو كنت أحمل معى حاجيات بيضاء اللون، لزاد شعورى بالراحة، حتى ما إذا أتت أسماك القرش تقفز على جانـــب الـــزورق، ألقيت بتلك الحاجيات إلى الماء بعيدا عنه. وتحســـبا لما قد يحدث، أخذت حذرى فى اليوم الرابع، فجعلت المجداف على أهبة الاستعداد دائما لأدافع به عن نفسى، خاصة بعد الساعة الخامسة.

سفينة على مرمى البصر:

حيـــنما أقـــبل الليل وضعت مجدافا على جانبى الزورق وأسلمت عينى للنوم. كنت أرى خايمى مانخريس كل ليلة، ولا أدرى مـــا إذا كانت رؤيتى له تتم فقط فى المنام أم فى اليقظة كذلك، كنا نتجاذب أطراف الحديث لفترة وجيزة حول موضوع مـــا، ثم يختفى، وما أن طلعت الشمس حتى أدركت أن ذلك لم يكن سوى أضغاث أحلام، وأما فى المساء فقد كان الأمر مختلفا تماما؛ حيث كنت على يقين من أن خايمى مانخريس كان يوجد علـــى حافة الزورق يحاورنى، وفى فجر اليوم الخامس، حاول هو الآخر أن يخلد إلى النوم، كان يتمايل فى هدوء، متكئا على المجداف الآخر، وفجأة بدأ يتفحص البحر ثم قال لى:

- انظر

رفعت ناظرى، فرأيت بما لا يدع مجالا للشك أو الإيهام أنوار سفينة متقطعة، تبعد عن الزورق مسافة ثلاثين كيلو مترا تقريبا، تتقدم فى نفس اتجاه الريح.

لقــد أمضــيت ســاعات طــوالا لا أقوى خلالها على التجديف، ولكن بمجرد أن رأيت الأنوار، استجمعت قواى داخل الــزورق، وأمسكت المجدافين بشدة، محاولا شق طريقى تجاه الســفينة، رأيــتها تــتقدم فى تؤده، ثم لمحت لبرهة من الزمن أضــواء ســارى السفينة، بل زاد الأمر، فرأيت ظلها يتقدم فى عكس اتجاه إشراقات الصبح الأولى.

قاومتــنى الــرياح بشدة، وبدأت أجدف فى يأس، أجدف بقوة غير التى عهدتها فى نفسى بعد مرور أكثر من أربعة أيام دون طعام أو نوم، ورغم هذا، فأعتقد أننى لم أتمكن من إزاحة الزورق مترا واحدا عن الاتجاه الذى فرضته الرياح عليه.

ابــتعدت الأضــواء شيئا فشيئا، فبدأت أتصبب عرقا، ثم خــارت قــواى، بعد عشرين دقيقة توارت الأنوار تماما. أفلت النجوم، وتخضبت السماء بلون رمادى ثخين، وأصبحت وسط مياه البحر الموحشة، فتركت المجدافين، ثم وقفت ورياح الفجر الباردة تلفحنى، وظللت أصرخ كالمجنون طيلة عشرين دقيقة.

وعندما رأيت الشمس من جديد، تمنيت الموت، فقد كنت

أتكــئ على المجداف للمرة الثانية، متعبا للغاية، ولم أعد أنتظر الخــلاص يأتينى من أى جانب، وفى هذه اللحظة التى تمنيت فــيها الموت عرض لى أمر غريب، بدأت أفكر توا فى الخطر المحــدق بى، فزاد عزمى من جديد، الأمر الذى ساعدنى على الاستمرار فى المقاومة.

وفى صباح اليوم الخامس، وجدتنى مستعدا لتغيير وجهة الــزورق بأى وسيلة، وتخيلت أننى إذا ما واصلت سيرى فى اتجــاه الريح، فسوف أصل إلى جزيرة آهلة بالسكان من آكلى لحــوم البشــر، فقد قرأت، وأنا فى موبيل، فى مجلة لا أتذكر اســمها، قصة غريق افترسه آكلو لحوم البشر، على الرغم من أنــنى لــم أكــن أفكر فى هذه الحكاية بعينها، وإنما فى حكاية أخرى: "البحار رينجادو"، كتاب قرأته فى بوجوتا منذ عامين، يــتحدث عــن قصة بحار تمكن من أن يسبح حتى وصل إلى إحــدى الجــزر القريــبة، بعد أن اصطدمت سفينة بلغم أثناء الحــرب، ظــل بالجزيرة مدة أربع وعشرين ساعة، يأكل من فاكهة الغابات، حتى عثر عليه آكلو لحوم البشر، أرادوا طهيه، فــألقوا به حيا فى قدر يغلى ماؤه، وهنا تذكرت فى الحال هذه الجزيرة ولم يعد فى إمكانى أن أتخيل المكان إلا كأرض تغص بــآكلى لحــوم البشــر، وهاهى المرة الأولى، منذ خمسة أيام قضيتها وحيدا وسط مياه البحر، والتى تتغير فيها فكرة الخوف مــن الأشــياء فــى ذهنى فالآن لم أعد أخشى البحر كخشيتى لليابسة.

وعـــندما انتصـــف الـــنهار، وجدتـــنى متكئا على حافة الزورق، منهكا فى سبات من أثر الشمس والجوع والعطش. لم أكـــن أفكـــر فى شئ، ولم أدر ما الوقت وما الجهة، وحاولت القـــيام، حـــتى أجـــرب ما بى من قوة باقية، إلا أن جسدى لم يطاوعنى.

"هذه هى اللحظة"، فكرت، ثم بدا لى حقا أن هذه اللحظة هى أكثر الأوقات الثلاثة مهابة، تبعا لما شرحه لنا معلمنا، إنها لحظـــة الالتصـــاق بالزورق. فهناك لحظة لا يحس فيها المرء جوعـــا أو عطشـــا، كما لا يحس فيها ضربات الشمس التى لا تـــرحم فوق الجلد المتورم. لا مجال للتفكير فى هذا، ولا مجال لإدراك المشـــاعر، إلا أن الأمل مازال موجودا، فهناك وسيلة أخـــيرة يمكن اللجوء إليها وهى أن أقوم بفك حبال المشربية ثم أربـــط جســـدى بهـــا ملتصقا بالزورق تمام الالتصاق. وقد تم العـــثور على جثث عديدة فى مثل هذا الوضع، بعد أن تعفنت وتناولتها الطيور بمناقيرها، بيد أنه قد أحكم وثاقها بالزورق.

هدانى تفكيرى إلى إمكانية الانتظار حتى يقبل الليل دون الحاجة إلى شد وثاقى، تدحرجت إلى أعماق الزورق؛ ومددت ساقى ثم انغمست حتى عنقى لساعات عديدة، شعرت بألم شديد لجـــرح فـــى ركبتى من أثر الشمس، رأيتنى كمن استيقظ من نومه، فاكسبه الألم إحساسا جديدا بالحياة، لامست الماء البارد، فاســـترجعت قـــواى شيئا فشيئا، وأحسست تقلصا فى معدتى،

وحركة فى بطنى، أهاجتها ضجة طويلة وعميقة، وهنا حاولت جهدى أن أتحمل هذا كله، فوجدته ضربا من المحال.

وفـــى صـــعوبة بالغة استجمعت قواى، وفككت حزامى، وأرخيت سروالى، ثم أخرجت ما بجسدى من فضلات، وعندها أحسست راحة لاحد لها، فقد كانت هذه هى المرة الأولى على مـــدى أيامى الخمسة، وكذلك فقد كانت المرة الأولى التى بدأت فـــيها الأســـماك، يائســـة، طيلة الخمسة أيام، تهاجم الزورق، محاولة تمزيق حبال شبكته الصلبة.

سبعة من طيور النورس:

كان منظر الأسماك يرصع مياه البحر على مقربة منى، فأحسســـت بـــالجوع وأصبت بخيبة أمل حقيقية للمرة الأولى، ولكننى أملك مصيدة على أقل تقدير. وتناسيت التعب، فأمسكت بـــالمجداف وتهيأت لأفرغ آخر ما تبقى لى من قوة، فهويت به فـــوق رأس سمكة كانت تقفز فوق حافة الزورق ضمن كوكبة هائجـــة، لا أدرى كـــم مـــرت هويـــت بالمجداف على أجساد الأســـماك. وأحسست أنى قد أصبت الهدف فى كل مرة، غير أنـــنى لـــم أفز منها بغنيمة تذكر، كانت الوليمة السمكية كبيرة، التهمـــت كـــبار الأسماك صغارها، أما سمك القرش فقد تحرك وبطنه إلى أعلى، يلتقط غذاءه من الشرائح المتناثرة بين المياه الثائرة.

تنازلت عن الهدف الذى رميت إليه، بسبب وجود أسماك القــرش، وهــنا أصبت بخيبة أمل كبيرة، فتركت المجداف، ثم استرخيت على حافة الزورق، وبعد بضع دقائق وجدت سعادة غامرة، إذ رأيت سبعة من طيور النورس تحلق فوق الزورق.

ولاشـــك أن وجود مثل طائر النورس يعد بالنسبة لبحار أصابه الجوع، وغدا وحيدا وسط مياه البحر، رسالة تبعث على الأمــل. فقــد جــرت العادة أن يقوم سرب من طيور النورس بمـــرافقة الســفن منذ اليوم الذى تبحر فيه وحتى اليوم الثانى فحســب. ووجــود مــثل هذه المجموعة من طيور النورس، المكونـــة مـــن ســبعة طيور، فوق الزورق، يعد بمثابة إشارة صريحة إلى أن اليابسة قريبة من هنا.

لـــو كنت أتمتع بقواى لبدأت التجديف توا، إلا أننى كنت متعبا للغاية، لا أقوى على الوقوف على قدمى لعدة دقائق، وهنا زادت قناعتى بأن اليابسة تبعد عنى مسيرة يومين، فهى قريبة منى، اغترفت قليلا من الماء مرة أخرى فى كفى ثم تناولته، ثم اضــطجعت بعدهـــا على حافة الزورق، ووجهى إلى السماء، حـــتى لا تصـــوب الشـــمس أشعتها لرئتى. ولم أخف وجهى بالقميص حتى أواصل نظرى لطيور النورس التى كانت تطير علـــى مهل، فى شكل زاوية حادة، تتوغل فى البحر، حدث كل هذا فى تمام الواحدة من مساء اليوم الخامس لى فى مياه البحر.

لســت أدرى تماما تلك اللحظة التى وصلت فيها طيور

النورس، فقد كنت مضطجعا فى الزورق، حوالى الخامسة مساء، أهيئ نفسى حتى أنحدر إلى قلب الزورق قبل أن تصل أسماك القرش، غير أننى رأيت حينئذ واحدا من طيور النورس صغير الحجم، مثل كف يدى، يحلق حول الزورق ثم توقف لدقائق وجيزة على الجانب الآخر من حافته.

وهنا سال لعابى، فملأ فمى، ولم يكن عندى ما يمكننى من اصطياد ذلك الطائر، فلست أملك شيئا قط سوى يدى ودهائى، الذى شحذه الجوع، اختفت البقية الباقية من طيور النورس، ولم يبق سوى هذا الصغير، يلمع ريشه، وقد اكتسى باللون البنى، وأخذ يقفز مرات ومرات فوق حافة الزورق.

بقيت فى مكانى ساكنا لا أتحرك، ثم أحسست فى كتفى حركة حد زعنفة سمكة القرش التى لا تتخلف عن موعدها فى تمام الخامسة. غير أننى قد قررت بأن أتحمل الخطر، فما واتتنى الجرأة فى هذه اللحظة حتى ألقى نظرة على طائر النورس، حتى لا تتنبه السمكة لحركة رأسى. نظرت فرأيت الطائر يمر على ارتفاع منخفض جدا فوق جسدى، ثم ابتعد، وبعد ذلك اختفى فى علياء السماء. ولكننى لم أفقد الأمل. وما خطر ببالى على الإطلاق التفكير فى كيفية افتراسه، رغم يقينى التام من ألم الجوع الذى أصابنى، وأنه إذا ما بقيت ساكنا فى مكانى فإن طائر النورس سيمر على مقربة منى حتى يصبح فى متناول يدى.

أعــتقد أنــنى ظللت أنتظر أكثر من نصف ساعة، حتى رأيــته يظهــر ويختفى عدة مرات. وفى لحظة، أحسست أثر ضربة كبيرة، بجوار رأسى وجهتها سمكة القرش بزعنفتها إلى ســمكة فمزقــتها إربا، وبدل أن أشعر بالخوف نتيجة ما حدث وجدتنى أحس جوعا كبيرا، كان طائر النورس هناك على حافة الــزورق، حدث ذلك فى مساء يومى الخامس فى مياه البحر، فهــا أنــا أمضى خمسة أيام بلا طعام، زاد انفعالى، وتتابعت ضــربات قلبى فى صدرى، وبقيت ساكنا كالموتى، وأنا أحس باقتراب طائر النورس منى.

كنت ممددا فى جانب الزورق، واضعا يدى على فخذى، وممــا لاشك فيه أننى بقيت لا أجرؤ على تحريك جفنى طيلة نصــف ســاعة، بدت السماء ساطعة، وقد تضررت من طول الــنظر، غير أننى لم أستطع أن أغمض عينى فى تلك اللحظة العصيبة، كان طائر النورس يعمل منقاره فى حذائى.

طــال ذلــك الحــدث مــدة نصف ساعة، كانت طويلة وعصــيبة، أحسســت خلالها بطائر النورس يقف على ساقى، وهو ينقر سروالى فى خفة بالغة، وبقيت ساكنا لا أتحرك حتى عندما نقرنى نقرة قوية ومميتة فى ركبتى، كنت على وشك أن أقفــز مــن مكــانى بسبب ما أصابنى به من جراح، إلا أننى تحملــت الآلام، وبــدأ الطائر يتدحرج حتى وصل إلى فخذى الأيمــن على مسافة خمسة أو سبعة سنتيمترات من يدى، وهنا حبست أنفاسى ثم بدأت أزلف بيدى نحوه فى يأس وتؤده.

الفصل السابع

موارد بائسة عند رجل جائع

ممــا لاشك فيه أنه إذا قام إنسان فى ميدان ما على أمل اصــطياد أحد طيور النورس، فسوف ينتظر طوال حياته دون أن يــتحقق له ذلــك، ولكن الأمر يختلف تمام الاختلاف حينما يصبح المرء على مسافة مائة ميل من الشاطئ، فغريزة الحوار عند طائر النورس تلفها حيطة بالغة عندما يكون على اليابسة، على العكس من حاله وسط مياه البحر؛ حيث يتحول إلى حيوان شديد الثقة بغيره.

كنت منهكا، لدرجة أن طائر النورس الصغير اللعوب قد ظــن - بعــد أن مر بفخذى - أننى قد فارقت الحياة، حدجته بــنظرة بينما كان يقف فوق فخذى، بدأ بنقر سروالى فى غير أذى، وأنا أزلف بيدى نحوه، وفى نفس اللحظة التى أدرك فيها الطائر أن الخطر يحدق به وأخذ يتأهب للفرار انقضضت عليه فــى وحشية، فأمسكت بأحد جناحيه، ثم قفزت إلى قاع الزورق استعدادا لالتهامه.

كان الطائر يقف فوق فخذى، وأيقنت وقتها أننى سألتهمه حــيا، إذا ما أوقعت به، دون أن أنزع عنه ريشه، كنت جائعا، وزاد مــن إحساسى بالعطش أن بدأت أفكر فى دم الطائر، وما أن أصــبحت أمتلكه بين يدى، وأحس بنبضات جسده الساخن،

وأنظر إلى عينيه البنيتين فى استدارتهما وبريقهما، حتى ترددت فى الأمر برهة من الزمن.

وذات مرة وقفت فوق سطح المدمرة أحمل بندقية صغيرة فـــى محاولـــة مـــنى لاصطياد واحد من طيور النورس التى خرجـــت تقتفى أثر السفينة. وعند ذلك قال لى مسئول السلاح بالمدمـــرة، الـــبحار ذو الخبرة العريضة: لا تكن رذيلا، فهذا الطائر يعد بمثابة رؤية اليابسة بالنسبة للبحار، وليس حريا بك كـــبحار أن تقدم على قتل واحد من طيور النورس كنت أتذكر تلك اللحظة، أتذكر كلمات مسئول السلاح، حين كنت مع طائر الـــنورس الأســـير داخل الزورق، على استعداد لقتله وتقتيته. وعلى الرغم من أننى قد أمضيت خمسة أيام دون طعام، إلا أن كلمات مسئول السلاح كانت ما تزال ترن فى أسماعى، كما لو كنت أسمعها الآن، ولكن فى تلك اللحظة كان الجوع أقوى من أى شئ... فى هذه اللحظة، أمسكت رأس الطائر ثم لويت عنقه مثلما يُفعل بالدجاجة تماما.

كـــان هشا للغاية، حيث أدركت للوهلة الأولى، ساعة أن لويـــت عنقه، أن عظامه قد تهشمت، وحينما لويت عنقه للمرة الثانـــية أحسســـت بدمـــه حيا ساخنا، يتدفق من بين أصابعى، فأسفت لذلك، بدا لى الأمر كما لو كان اغتيالا، كانت رأسه ما تزال تخفق، تنبض فى يدى، بعد أن فصلتها عن جسده.

تـــناثر الـــدم فـــى أرجـــاء الزورق فأثار حفيظة أسماك

القرش، فرأيت واحدة منها تمرو بطنها إلى أعلى، أبيض لامعا، فلامسـبت بـه جانب الزورق، ومن المعروف أن سمك القرش يصـاب بالجنون لرائحة الدم، ولهذا، فباستطاعته، فى مثل هذه الحال ، أن يقطع صفيحة من الفولاذ بقضمة واحدة منه، ومما يفسـر لنا سر سيره دائما وبطنه لأعلى أن فكيه معلقان أسفل جسـده، وذلك حتى يتمكن من التهام طعامه، وهو يتمتع بقصر نظر وشراهة تامة، تجعله يسحق كل ما يقابله فى طريقه وهو سـائر وبطـنه إلى أعلى، أحسست فى هذه اللحظة أن اسماك القـرش سـتهاجم الزورق، فألقيت إليها، مفزوعا، رأس طائر الـنورس، وعلـى مسافة سنتيمترات من الزورق شاهدت تلك الحيوانات الضخمة تتدافع بشدة ينازع بعضها بعضا كشأن ذلك الـرأس الصغير لطائر النورس الذى يقل فى حجمه عن حجم البيضة.

وأول ما حاولت فعله فى تلك اللحظة، هو أن أقوم بنزع ريـش الطائـر عن جسده، كان خفيفا، هش العظام لأبعد حد، الأمر الذى يجعل بمقدور الإنسان أن يمزق تلك العظام بإصبع يـده، حاولت جاهدا، إلا أن الريش والجلد كانا كقطعة واحدة ، جلـد ناعم أبيض، ولشدة التصاق الريش بالجلد كان ينزع معه مخضـبا بالدمـاء، وأصبحت أحمل بين أصابعى طعاما أسود اللون لزجا، أصابنى باشمئزاز كبير.

مـن السهل أن يقال إن شخصا أمضى خمسة أيام دون

طعام يصبح بمقدوره أن يلتهم كل ما يقابله، ولكن الإنسان مهما كـــان جائعـــا فإنـــه يصاب باشمئزاز كبير عندما يرى الريش مختلطا بالدماء، يصدران رائحة نفاذة تشبه رائحة السمك النيئ الجرب.

وفى البداية، حاولت أن أنزع ريش الطائر عن جسده فى عناية فائقة وبطريقة معينة، وما كنت أهتم مطلقا بما له من جلد هش، وما أن نزعت الريش عنه، حتى تهشم بين يدى، فغسلته داخـــل الزورق، ثم شددته دفعة واحدة فتمزق، رأيت له أمعاء وردية وأحشاء زرقاء، فهاجت معدتى عن آخرها. وهنا، ألقيت بمـــزقة مـــنه داخل فمى، فلم أقدر على ابتلاعها، كانت بسيطة للغاية، وبدا لى أنى أمضغ ضفدعا، لم أستطع على ذلك صبرا، نفرت منه نفورا، ثم تفلت كل ما وضعته بفمى، وبقيت ساكنا لا أتحـــرك مدة طويلة، أرقب تلك الكومة فى يدى بعد أن اختلط ريشها بعظامها، وتخضبت جميعها بالدماء.

وعـــندما عجزت عن تناول تلك القطعة، بدأت أفكر فى إمكانية استخدامها كطعم أصطاد به، ولكننى لم أكن أملك للصيد عدتـــه، وتمنيت أن لو كنت أمتلك دبوسا وقطعة من السلك، لا أملـــك شـــيئا مـــن هذا كله؛ حيث لم يكن معى سوى المفاتيح والســـاعة والخـــاتم والبطاقات الثلاث الخاصة ببعض محلات موبيل.

هدانـــى تفكـــيرى إلـــى ارتجال صنارة بواسطة الحزام والإبـــزيم، غـــير أننى لم أعد أقوى على شئ، وأيقنت استحالة

صـــنع مثل تلك الصنارة بحزام وإبزيم، ولما جن عليَّ المساء أقبلــت أســماك القــرش، تقفز حول الزورق بعد أن أصيبت بالجنون لرائحة الدم. وعندما أظلم الليل تماما ألقيت ببقايا طائر الــنورس فــى الماء ثم اضطجعت أنتظر الموت، وبينما كنت أهيئ المجداف لأنام عليه سمعت صوت حرب ضروس شنتها أسماك القرش لتتنازع فيما بينها تلك العظام التى عافتها نفسى.

أظــن أن الموت قد أدركنى فى تلك الليلة بسبب ما كنت أكــابده من عناء وبأس. أرسلت ريح عاصف فى ساعات الليل الأولــى. أخــذ الــزورق يهتز، وما أخذت حذرى، أو حزمت جســدى بحبال الزورق، وظللت قابعا منهكا يغمر الماء جميع جسدى إلا قدمى ورأسى.

ولكن بعد منتصف الليل تبدل الحال: بزغ القمر فى أول ليلة منذ وقعت الحادثة. خيمت على البحر زرقة ناصعة، كست صــفحة المــاء لــباس الطيف، وفىهذه الليلة لم يأت خايمى مانخريس، كنت وحيدا، يائسا، ملقى فى قاع الزورق.

ومــع هــذا، فكلما بدأت أفقد شجاعتى، وقع شئ يبعث الأمــل فى نفسى مرة أخرى، كان هذا هو انعكاس القمر على صــفحات المــوج فــى هذه الليلة، كان البحر هائجا، ومع كل موجــه تخيلــت أنى أرى أنوار إحدى السفن، رغم أننى فقدت الأمــل منذ ليلتين فى أن تقوم هذه السفينة بإنقاذى، ومع ذلك،

ومـــع تطاول ليلتى تلك فى شفافيتها المكتسبة من ضوء القمر - ليلــتى السادســـة فـــى مياه البحر - كنت أتفقد الأفق فى يأس، وبإمعان وإيمان كبيرين مثلما كنت أفعل فى ليلتى الأولى. ولو كنـــت الآن فـــى نفس الظروف التى أحاطت بى ليلتها لفارقت الحـــياة مـــن شدة اليأس، والآن أيقنت أن الطريق الذى يسلكه الزورق ليس طريق أية سفينة على الإطلاق.

أنا والموت:

لا أذكر من فجر اليوم السادس شيئا سوى فكرة مشوشة حـــول الوضـــع الـــذى كنت عليه طيلة الصباح: ملقى بعد أن أضـــنانى التعب فى قاع الزورق بين الحياة والموت، فى هذه اللحظـــات كنت أفكر فى أسرتى، وتخيلت كيف سيكون حالها بعد أن تعلم باختفائى، وما دهشت كثيرا لمجرد أن تخيلتها تعد العـــدة للقـــيام بواجب العزاء لى، فقد كنت على يقين - طيلة يومـــى السادس وحيدا وسط مياه البحر - أن مثل هذا الأمر قد وقـــع، وأنهم قد أبلغوا أسرتى باختفائى، ولما لم تعد الطائرات أيقنـــت أنهم قد تخلوا عن عمليات البحث عنى، وأدرجونى فى عداد الموتى.

وقـــد وجدتنى على صواب فى تفكيرى هذا، إلى حد ما، وفـــى كـــل وقت كنت أنبرى للدفاع عن نفسى، فما كنت أعدم الوسيلة قط من أجل البقاء، حتى وأنا متكئ، مهما كانت هينة،

وذلك حتى لا أفقد الأمل، وفى اليوم السادس ما عدت آمل فى شئ، فقد أصبحت ميتا داخل المركب.

وفـــى المساء، حين بدأت أفكر فى قرب حلول الخامسة وأن أســماك القرش ستظهر من جديد، بذلت، فى يأس، بعضا من الجهد أملا فى أن أستجمع قواى حتى أمسك بحافة الزورق، فمــنذ عاميــن شاهدت أشلاء رجل مزقته أسماك القرش على شــاطئ قرطاجنة، وما كنت أرغب فى ميتة كهذه، ولا فى أن يوزع جسدي إربا بين جميع الحيوانات الشرهة.

كانت الساعة تقترب من الخامسة، وفى موعدها ظهرت أســماك القرش، فأحاطت بالزورق من كل جانب وفى صعوبة بالغــة حاولت أن أستجمع قواى حتى أفك حبال الزورق، أقبل المساء مصحوبا بالبرد الشديد، أما البحر فكان هادئا، أحسست قوة فى جسدى، وفجأة رأيت طيور النورس السبعة ثانية، تلك الــتى ظهــرت فى اليوم السابق، وبرؤيتها وجدتنى أرغب فى البقاء على قيد الحياة من جديد.

وفى تلك الأثناء كنت على استعداد لتناول أى طعام؛ فلكم كنت أتألم من الجوع، إلا أن ألمى لحلقى الملتهب وتصلب فكى نتــيجة عــدم الحركة كانا أنكى وأشد إيلاما، كنت بحاجة لأن أمضغ شيئا، فحاولت نزع قطع من كاوتشوك حذائى، غير أننى لــم أكــن أملك ما أقطعها به، وهنا تذكرت أنه بحوزتى بعض البطاقات الخاصة بمحلات موبيل.

كانـــت البطاقات فى جيوب سروالى، وقد أصابها التلف بفعـــل الرطوبة. أخذتها ومزقتها، ثم وضعتها فى فمي وبدأت أمضــــغها، كان ذلك أمرا أشبه بالمعجزة، فقد هدّأ من ألم الحلق بعض الشيء، وغمر اللعاب فمى، تابعت المضغ فى بطء، كما لو كنت أمضغ علكا، وعندما قضمت القضمة الأولى أحسست بـــألم فـــى فكـــى، ولكنـــنى، بعد متابعة مضغ البطاقات، التى احتفظت بها دون أن أدرى لذلك سببا، منذ أول يوم خرجت فيه للشــــراء مع "مارى أدرس" بدأت أحس قوة وتفاؤلا، فكرت فى أن أواصل مضغ البطاقات دون توقف حتى أخفف ما أحس به من ألم فى فكى، ورأيت أنه من الإسراف أن ألقى بها فى مياه البحر، وهنا شعرت بالطعام البسيط من الكرتون المطحون يأخذ طـــريقه إلـــى معدتى، فأدركت أننى سوف أنجو، وأن أسماك القرش لن تمزق جسدى.

ما طعم الحذاء؟

عـــرف الهـــدوء طريقه إلى نفسى بعد مضغ البطاقات، فـــأرهف ذلك خيالى، مما جعلنى أتابع البحث عن أشياء آكلها، فلـــو كنـــت أمـــتلك سكينا لمزقت الحذاء، ومضغت قطعا من الكاوتشوك؛ حيث كان هذا هو الشيء الوحيد الذى يثيرنى وهو فـــى متـــناول يدى، حاولت استخدام المفاتيح فى نزع أرضية الحـــذاء، الأرضية البيضاء النظيفة، إلا أن محاولاتى قد ذهبت أدراج الـــرياح، بعد أن أصبح من المستحيل نزع جزء من هذا الكاوتشوك الذى بات هو والقماش كقطعة واحدة.

وفى يأس، بدأت أعض الحزام حتى آلمتنى أسنانى، وما تمكنـــت حتى من نزع قضمة واحدة، وفى هذه اللحظة تحولت إلى حيوان ضار، يحاول نزع قطع من الحذاء بأسنانه، أو قطع مـــن الحزام، أو القميص، وعندما أقبل المساء، نزعت ملابسى عـــنى بعـــد أن تبللت تماما، فما أبقيت على جسدى منها غير الســـروال، ربما يرجع مثل هذا الأمر إلى موضوع البطاقات، وبعد هذا مباشرة استغرقت فى النوم؛ ففى هذه الليلة السابقة لى فـــى مياه البحر نمت نوما عميقا لساعات طويلة، ولا أدرى ما إذا كان ذلك راجعا لتعودى عدم الراحة بالمركب، أم إلى أننى أصـــبحت مـــنهكا بعـــد سهر دام سبع ليال كاملة، كان الموج يوقظـــنى بيـــن آنٍ وآخـــر، فأهب واقفا، مفزوعا، أحس وكأن الضـــربة تجرفـــنى إلـــى الماء، ثم أعود سريعا لأغط فى نوم عميق.

وفـــى الثامنة صباحا أشرقت الشمس، فشعرت بانتعاش شديد، كان مصدره ذلك النعاس الذى غشانى ليلة أمس، شاهدت طيور النورس السبعة تحلق فى السماء الرصاصية على ارتفاع منخفض.

وقبل ذلك بيومين، كانت الفرحة تملؤنى فور حضور هذه الطـــيور السبعة، ولكننى عندما رأيتها للمرة الثالثة، بعد رؤيتى لهـــا على مدار يومين متتاليين، أحسست بالخوف يولد بداخلى من جديد. إنها "سبعة طيور ضالة"، تخيلت ذلك، كنت أفكر فى

هـــذا الأمـــر وأنا فى حالة يأس شديد، فكل بحار يعلم أنه فى بعـــض الأحـــيان يضـــل سرب من طيور النورس طريقه فى البحر، ثم يظل طائرا عدة أيام بلا وجهة حتى يتمكن من متابعة إحـــدى السفن لتدله على اتجاه الميناء، ولعل تلك الطيور التى رأيتها على مدى ثلاثة أيام كانت هى نفسها لم تتغير، تائهة فى مـــياه البحر، وكان ذلك يعنى أن الزورق الذى يقلنى كان على مسافة بعيدة جدا من اليابسة.

الفصل الثامن

صراعى مع أسماك القرش من أجل سمكة

أصبحت أسير فكرة راسخة؛ فبدل أن أقترب من الشاطئ أصبحت أتوغل فى مياه البحر طيلة سبعة أيام، وكان لذلك أثره فــى أن تخليت عن قرارى بمواصلة الكفاح، ولكن فكرة البقاء تصــبح أمكــن فــى نفس الإنسان عندما يشعر بأنه قد أدركه المــوت. كــان ذلك اليوم - يومى السابع - مختلفا عن الأيام الســابقة، وذلك لأسباب عديدة؛ فقد كان البحر ساكنا ومظلما، وكانــت الشــمس فاترة ومُسكنّة فأحرقت جلدى، ثم هبّت ريح خفيفة دفعت الزورق فى رقة؛ فخففت عنى ألم الحروق بعض الشىء.

وكذلك، فقد كانت الأسماك مختلفة؛ فمنذ وقت مبكر وهى فــى حراســة السفينة، تسبح فوق سطح الماء، كنت أراها فى وضوح تام؛ فمنها الأسماك الزرقاء، والبنية، والحمراء، كانت أسماكا ملونة بكل الألوان، والأشكال والأحجام، وظل الزورق ينساب بجانبها، وكأنه يسير فوق حوض صغير للأحياء المائية.

لا أدرى هــل بإمكان الإنسان أن يتعود، بعد سبعة أيام قضاها بلا طعام فوق ظهر الزورق، على مثل هذه الحياة، إلا أنــه قــد بدا لى ذلك ممكنا، فقد تحول يأس الأمس إلى صبر عمــيق وغــير ذى بال. أيقنت أن كل شئ مختلف، أن البحر

والسماء قد تخليا عن عدائهما، وأن الأسماك التى صاحبتنى فى رحلــتى ما هى إلا أسماك صديقة، فهى تمثل معارفى القدامى طيلة تلك الأيام السبعة.

فـــى هذا الصباح، لم أكن أرغب فى الوصول بالزورق إلـــى أى مكـــان، فقد أيقنت أنه قد وصل إلى منطقة خالية من السـفن، ضــلت فيها طيور النورس نفسها جادة الطريق، ومع هــذا، وبعد سبعة أيام أمضيتها على متن الزورق، بدأت أؤمن بفكرة تعودى على حياة البحر، على أسلوب حياتى الذى يبعث علـــى الملـــل دون ما حاجة إلى إعمال القريحة من أجل إنقاذ حياتى، وبعد كل هذا استطعت أن أعيش سبعة أيام متحديا كل شئ، فلم لا يكون بإمكانى أن أعيش على الدوام داخل الزورق؟ كانـــت الأسماك تسبح فوق السطح، والبحر هادئا ونظيفا، يكتظ بالعديد من الحيوانات الجميلة، والمثيرة التى أحاطت بالزورق لدرجـــة جعلتنى أتخيل أنه بمقدورى أن أمسك بها بين قبضات يدى. لم يكن من بينها أى من أسماك القرش، وبكل ثقة، مددت يـــدى فى الماء محاولا الإمساك بسمكة مستديرة، لونها أزرق لامـــع، لا يزيد طولها على عشرين سنتيمترا، بدا الأمر كما لو أن حجــرا ألقـــى إلى الماء، وبسرعة غاصت الأسماك، تحت المـــاء، ثـــم تـــوارت بين أمواجه المتلاطمة، ثم عادت، رويدا رويدا، تظهر فوق سطح الماء.

فكـــرت فى الأمر ثانية، فوجدتنى فى حاجة إلى شئ من

الدهاء يمكننى من اصطياد سمكة بيدى؛ حيث إن اليد لا تتمتع، تحــت ســطح الماء، بنفس القوة والمهارة، وهنا وقع اختيارى علـــى ســمكة من بين الكثرة الموجودة. حاولت أن أمسك بها، وهذا هو ما حدث بالفعل، غير أننى أحسست بها تفلت من بين أصـــابعى فى سرعة وخفة حركة وقفت أمامها حائرا، تحليت بالصـــبر وعــدم العجلة أملا فى أن أمسك سمكة. لم أكن أفكر وقــتها فى سمك القرش والذى من المحتمل أن يكون متواجدا هناك، فى القاع، ينتظرنى أمد زراعى حتى المرفق فيحمله بين فكـــيه فـــى قضـــمة لا تعـــرف الخطأ، وظللت مشغولا بمهمة اصـــطياد السمكة إلى أن تجاوزت الساعة العاشرة بقليل، ولكن بـــدون جدوى، فقد عضت الأسماك أصابعى عضة حقيقية فى بـــادئ الأمـــر، كما لو كانت تتكالب على طعم فى صنارة. ثم ازدادت عضتها حدة، لدرجة أن سمكة يصل طولها إلى نصف المـــتر، ملســـاء، فضية اللون، أسنانها حادة ودقيقة، شقت جلد إبهـــامى، وهنا أدركت أن عضة الأسماك الأخرى لم تكن بهذا القدر من الإيذاء، لقد أصيبت أصابعى كلها بتشققات دامية.

سمكة القرش بالزورق:

وبعـــد لحظـــة، ظهر حشد هائل من أسماك القرش حول الـــزورق، وربمـــا كان مبعث ذلك الدم الذى سال من يدى. لم أرها بمثل هذه الكثرة، وما رأيتها تفصح عن شراهتها فى مثل هـــذه المـــرة، كانـــت تقفز كالدلفين، تطارد، وتفترس الأسماك

بجـــوار حافة الزورق، جلست داخل الزورق مفزوعا، أتأهب لمشاهدة ما يجرى من عمليات اغتيال.

جــرى كــل هــذا بطريقة غاية فى العنف، أنستنى تلك اللحظـــة التى قفز فيها سمك القرش خارج الماء، فضرب بذنبه ضـــربة قوية، أنشأت زبدا براقا غرق فيه الزورق، ثم شاهدت بـــرقا ساطعا فى لون المعدن وسط بريق موج البحر المرتطم بحافة الزورق. وبغريزتى، أمسكت بمجداف ثم تأهبت لإ نزال ضربة الموت؛ فقد كنت على يقين من أن سمك القرش قد تسلل إلـــى الـــزورق، وفـــى الحال لمحت زعنفة بارزة من جانب الزورق، فأدركت ما حدث، فقد ظل سمك القرش يطارد سمكة بـــراقة، خضـــراء اللون، يقرب طولها من نصف المتر، حتى اضـــطرها لأن تقفـــز داخل الزورق. وبكل ما أوتيت من قوة، أنزلت الضربة الأولى من المجداف فوق رأسها.

لـــيس أمـــرا ســـهلا أن يقوم الإنسان بقتل سمكة داخل الـــزورق، ففى كل ضربة كان يتمايل بشدة، مهددا بالانقلاب؛ يالها من لحظة خطيرة، كنت أحتاج خلالها إلى قواى جميعها، وإلى أن أكون فى غاية اليقظة، فإذا ما أنزلت ضرباتى بأسلوب عشوائى لتسبب ذلك فى إمكانية انقلاب الزورق، وفى أن أسقط فـــى مـــياه تموج بأسماك القرش الجائعة، وإذا لم تكن الضربة متقنة فسوف تهرب الغنيمة. كنت بين الحياة والموت؛ فإما أن أقـــع بيـــن حلـــوق أسماك القرش وإما أن أجد فى يدى أربعة أرطال من السمك الطازج أدفع بها جوعا دام سبعة أيام.

اتكــأت بعزم شديد على حافة الزورق ثم أنزلت الضربة الثانــية، وعندما أحسست أن خشبة المجداف قد التحمت بعظام رأس الســمكة، تمــايل الزورق، ارتجفت أسماك القرش أسفل أرضــيته، وعندما استعاد استقراره كانت السمكة لا تزال حية فى داخله، وعندما تعانى السمكة سكرات الموت يصبح بإمكانها أن تقفز إلى أعلى وأبعد نقطة ممكنة. وهنا، أيقنت ضرورة أن تكون الضربة الثالثة صائبة، وإلا فقدت الغنيمة إلى الأبد.

فــى قفــزة واحدة وجدتنى جالسا فى أرضية الزورق، فأصــبحت فى وضع أفضل للإمساك بالسمكة، فلو تمكنت منها لأمســكت بهــا برجلى، بين ركبتى، وبأسنانى، إذا لزم الأمر. أمكنــت لنفســى فى أرضية الزورق، حاولت ألا أترك مجالا للخطــأ، فقــد أصــبحت حياتى وقفا على تلك الضربة، هويت بــالمجداف بكــل مــا أوتيت من قوة، كانت ضربة ساحقة، لم تســتطع السمكة بعدها حراكا، وسال دمها فى خيط رفيع قاتم اختلط بمياه الزورق فغيرها.

أحسســت أنــا نفسى رائحة الدم، وكذلك فقد أحست بها أســماك القرش؛ وفى هذه اللحظة، ولأول مرة، بعد أن أصبح فــى حوزتى أربعة أرطال من السمك أحسست خوفا لم أستطع لــه دفعــا؛ فلقد جن جنون أسماك القرش لرائحة الدم، وأخذت ترتطم، بكل ما أوتيت من قوة، بأرضية الزورق؛ فأخذ يتمايل، وأحسست بأنه من الممكن أن يصبح عاليه سافله بين آن وآخر.

ما هى إلا ثانية، وفى سرعة تفوق البرق، سيتحول جسدى إلى إرب بفضـــل أســـنان القـــرش، الأسنان الفولاذية التى تتراص بجوار بعضها فى صفوف ثلاثة.

ولكـــن نـــداء الجـــوع العـــاجل قد فاق كل شئ فى تلك اللحظـــة، ضـــغطت الســـمكة بين ركبتى، ثم حاولت جاهدا، وجســـدى يتمايل، أن أنجح فى هذه المهمة الصعبة حتى أحافظ علـــى تـــوازن الزورق كلما تعرضت لهجمة جديدة من جانب الحـــيوانات الضارية. استمر الوضع بضع دقائق، وكلما استقر الـــزورق، أقوم بإخراج المياه الملطخة عبر جانبه، ومرة بعد أخـــرى، أصـــبح ســـطح المـــاء خاليا من آثار الدماء، فهدأت الحيوانات الضارية، ولكن كان من الواجب أن أحمى نفسى: لقد رأيت زعنفة لسمكة القرش، أكبر زعنفة رأيتها فى حياتى لهذا الـــنوع مـــن السمك، تعلو حافة الزورق بما يزيد على نصف المـــتر، كانـــت تسبح فى دعة رغم يقينى من أنها لو أدركت رائحـــة الدم من جديد، لهزت الزورق هزة جعلت عاليه سافله، وفى حرص شديد تهيأت لفك أسر سمكتى.

حـــيوان يبلغ طوله نصف المتر تحميه قشرة صلبة من الفلـــوس، لو حاول إنسان نزعها لوجدها ملتصقة بلحمه كما لو كانـــت صـــفائح فولاذية. لم أكن أملك آلة قاطعة فحاولت نزع قشرته عنه بالمفاتيح، غير أننى لم أتمكن حتى من تحريكها من مكانهـــا، وفى هذه الأثناء، أدركت أننى لم أر مثل هذه السمكة

فـــى حياتى: لها لون أخضر قاتم، وجسد يحميه عدد هائل من الأصداف الصلبة، وأنا، منذ صباى، أربط بين اللون الأخضر وبين السموم. أمر لا يصدق، فكلما تخيلت أننى سأتناول قضمة من هذا السمك الطازج خفقت معدتى خفقانا مؤلما، ورغم ذلك فقــد تــرددت لحظة أمام فكرة أن يكون ذلك الحيوان الغريب حيوانا ساما.

جسدى الضعيف:

ومع كل هذا، بإمكان المرء أن يتحمل الجوع عندما يفقد الأمــل فـــى العثور على غذاء، وفى تلك اللحظة، رأيتنى وقد نزعـــت الرحمة من قلبى، شئ لم يحدث لى من قبل، فحاولت وأنـــا جـــالس فـــى قاع الزورق تمزيق اللحم الأخضر اللامع بالمفاتيح التى كانت معى.

وعقب ذلك ببضع دقائق، أدركت أننى فى حاجة إلى أن أنـــتهج سلوكا أعنف من هذا، إذا ما كنت أرغب حقا فى التهام فريســـتى، وهنا هممت واقفا، ثم ضغطت زيلها بشدة، وأدخلت رأس المجـــداف فى خياشيمها، وهنا أدركت أن السمكة لم تمت بعـــد، فهويـــت بضـــربة أخرى فوق رأسها، ثم حاولت نزع صفائحها الصلبة الواقية لخياشيمها، فما دريت مصدر الدم الذى سال على أصابعى: هل هو دمى أم دم السمكة؟ جرحت يداى، وبرز اللحم من أطراف أصابعى.

أثـــار الـــدم من جديد غريزة الجوع لدى أسماك القرش، وفى تلك اللحظة، بات من الصعب أن أصدق، وأنا أشعر حولى بالغضـــب الجـــامح للحيوانات الجائعة، وأحس نفورا من اللحم الملطـــخ بالدماء، إمكانية أن ألقى بالسمكة إلى أسماك القرش، مـــثلما فعلـــته تماما مع طائر النورس، تملكنى اليأس، وخارت قـــواى، أمام ذلك الجسد الصلب صعب المنال؛ فأحشاء السمك غضة وغير مستقرة، ويقال إن سمك القرش إذا ضرب بقوة فى ذيله، فسوف تتدلق أحشاؤه من فمه، ففى قرطاجنة توجد بعض أســـماك القـــرش معلقة من ذيلها وقد تدلت من بين فكيها كتلة هائلة من أحشائها اللزجة القاتمة.

ومن حسن طالعى، فقد كانت أحشاء سمكتى تشبه أحشاء سمك القرش فى طراوتها، أخرجتها فى لحظة بإصبعى، كانت أنثى؛ فقد عثرت على عنقود من البيض داخل أحشائها، وعندما أخرجـــت أحشـــاءها قضمت منها القضمة الأولى، ولم أستطع اخـــتراق قشـــرة فلوسها، استجمعت قواى من جديد، ثم أعدت المحاولـــة، بدأت أقضم، فى يأس، حتى كلّ فكاى، وهنا تمكنت مـــن الفـــوز بالقضـــمة الأولـــى، وبدأت أمضغ لحمها البارد المتصلب.

كنـــت أمضـــغ فى نفور، وهى حالة كانت تنتابنى كثيرا عندما أشم رائحة السمك النيئ، لكن الطعم يبعث على مزيد من الـــنفور، وجدت له نفس طعم شجر البالم قبل معالجته، إلا أن

السـمك يزيد عليه بأنه غير مستساغ وأكثر لزوجة، فما تناول أحـد قبلى سمكة نيئة، ولكننى أدركت، عندما بدأت أمضع أول طعام يصل إلى فمى منذ سبعة أيام، ولأول مرة فى حياتى، فى نفور تام، أننى أتناول الآن سمكة حية.

كان لأول قطعة التهمتها أثرها المباشر على حالتى، فقد خففـت مـن آلام الجـوع، ثـم قضمت قضمة أخرى وبدأت أمضـغها؛ إذ تخيلـت، قبل ذلك بلحظة، أنه بإمكانى أن ألتهم سمكة قرش كاملة، غير أننى شعرت بأن معدتى قد امتلأت بعد القضـمة الثانـية، وما هى إلا لحظة حتى هدأ الجوع الرهيب الـذى ظللـت أعانى منه طيلة سبعة أيام، أحسست بالقوة من جديد، مثلما كان الحال معى فى اليوم الأول.

والآن أدركت أن السمك النئ يذهب الظمأ، حقيقة لم أكن أعلمها من قبل، فقد أدركت أن السمك لا يخفف من حدة الجوع فحسـب بل العطش أيضا، كنت سعيدا ومتفائلا، فما زلت أملك طعامـا يكفينى مدة طويلة، فأنا لم ألتهم سوى قضمتين فقط من حيوان يبلغ طوله نصف المتر.

وهـنا قـررت أن ألفـه فـى القميص وأتركه فى قاع الزورق، حتى يظل طازجا، ولكن على أن أغسله قبل أن ألفه، وفـى ذهول أمسكت بذيله ثم غمرته فى الماء دفعة واحدة من فوق حافة الزورق، لكن دمه كان متخثرا بين الفلوس، فأصبح من الضرورى حكه، وفى سذاجة عدت لأغمره فى الماء، وفى

تلــك الأثــناء، شعرت بهجوم وقعقعة عنيفة لفكى أحد أسماك القــرش، فقــدت توازنى بعد أن دفعنى ذلك الحيوان الضارى. ارتطمــت بجانب الزورق، ولكننى لم أفرِّط فيما كان بين يدى من طعام، دافعت عنه كحيوان متوحش، ولم أكن أفكر فى هذا الجزء من الثانية، أنه باستطاعة سمك القرش أن ينزع ذراعى مــن كتفى فى قضمة واحدة للمرة الثانية. استجمعت قواى مرة أخــرى، غــير أننى وجدت يدى خالية من أى شئ، فلقد ذهب سمك القرش بغنيمتى، وهنا تملكنى الغيظ وانتابنى جنون اليأس والغضب، فأمسكت بالمجداف وهويت بضربة هائلة فوق رأس ســمكة القرش، عندما مرت ثانية بجوار الزورق، قفز الحيوان الضارى ثم استدار هائجا، وفى قضمة عنيفة قاتلة مزق نصف المجداف ثم ابتلعه.

الفصل التاسع

وتغير لون الماء

تملكنى اليأس والغضب، فأخذت أضرب الماء بالمجداف المكسـور، كنـت فـى حاجة للانتقام من أسماك القرش التى انتزعـت مـن بيـن يدى الطعام الوحيد الذى بحوزتى، كانت الساعة تقترب من الخامسة من مساء اليوم السابع لى وسط مياه الـبحر، ولم يتبق سوى دقيقة واحدة على موعد وصول أسماك القـرش فى مجموعة هائلة، أحسست بقوة فى جسدى لما أكلته مـن لحـم السمك، وكان لما حل بى من غضب نتيجة ضياع بقيـتها أثـر فـى إذكاء روح الصراع بداخلى. كان بالزورق مجدافـان إضافيان؛ ففكرت فى أن أستبدل المجداف المكسور بآخـر حـتى أواصل الحرب ضد الحيوانات الضارية، ولكن غريزة البقاء كانت أقوى من الغيظ، أدركت أنه من الممكن أن أفقـد المجدافيـن الأخريين وما دريت فى أى لحظة سيتاح لى استخدامهما.

أقبل المساء كعادته كل يوم، ولكن ظلمة الليل كانت أحلك من مثيلاتها فى الليالى السابقة، كان البحر عاصفا، أما السماء فكانـت تـنذر بالمطر، وهنا بدأت أفكر فى أنه من الممكن أن أحـوز ماء عذبا بين لحظة وأخرى، وعليه فقد نزعت حذائى وقميصـى كـى أتلقى فيهما الماء، وهذا ما نسميه فوق اليابسة

"الليلة الليلاء" أما فوق سطح البحر فمن الواجب أن نطلق عليها "ليلة أسماك القرش".

وقبل التاسعة هبّت رياح باردة، حاولت المقاومة وأنا فى قاع الزورق، إلا أن ذلك لم يكن ممكنا. أحسست بالبرد ينفذ من بين خلايا جسمى حتى استقر فى قاع عظامى، فرأيت ضرورة أن أرتــدى القميص والحذاء، وأن أطرح عنى فكرة أن المطر ســيأخذنى على غرة، ولن يكون لدى ما أتلقى الماء فيه، كان المــوج عاتــيا، فــاق كثيرا ما تعرضت له مساء ليلة الثامن والعشــرين مــن شهر فبراير، يوم وقوع الحادثة، بدا الزورق كقشــرة وســط مــياه الــبحر الهائج، العكر، لم أستطع النوم، انغمست فى الماء حتى عنقى، حيث بدأ الهواء يبرد شيئا فشيئا، ارتعدت، ومررت بلحظة أدركت فيها أننى لن أستطيع مقاومة الــبرد، فــأخذت أزاول التمرينات الرياضية، حتى تعم جسدى حالــة من الدفء، إلا أن ذلك كان مستحيلا، وأحسست بضعف شــديد، وأصــبح لزاما علىَّ أن أمسك بحافة الزورق بكل ما أوتيــت مــن قــوة حتى لا يجرفنى الموج إلى الماء، وضعت رأسى فوق المجداف الذى حطمه سمك القرش، أما الآخران فقد استقرا فى قاع الزورق.

وقــبل منتصف الليل هدأت الريح العاتية، وبدت السماء ملــبدة، وقد اكتست بلون بنى قاتم، وأصبح الهواء رطبا، لكن الســماء لــم تمطر قطرة واحدة من الماء، وبعد منتصف الليل

ببضــــع دقـــائق هبت موجة هائلة- بلغت فى حجمها ذلك التى اكتســحت ســطح المدمرة فحملت الزورق كما لو كان قشرة موز- زجت به فى البداية إلى أعلى، وفى جزء من الثانية قلبته رأسا على عقب.

وقــد أدركت هذا كله عندما وجدت نفسى فى الماء أسبح إلى أعلى، مثلما فعلت تماما فى مساء يوم الحادث، كنت أسبح واليأس يتملكنى، خرجت إلى سطح الماء وأحسست أننى أموت من الخوف؛ فما رأيت الزورق، رأيت الأمواج الهائلة السوداء فــوق رأســـى، وهنا تذكرت لويس رينخيفو ذلك الرجل القوى والســباح الماهــر صـــحيح الــبدن الذى لم يتمكن من اللحاق بالـــزورق وهو على مسافة مترين منه، ضللت، وأخذت أبحث عن الزورق فى الاتجاه المضاد، فوجدته يلوح خلفى فوق سطح الماء، وعلى مسافة متر واحد منى، متقلبا، تهده الأمواج، لحقت بـــه بضـــربتين مـــن ذراعى؛ ضربتى ذراع لم يستغرقا سوى ثانيتيـــن، غير أنهما طالتا كأبد الدهر، كنت فزعا للغاية لدرجة أنـــنى فـــى قفزة واحدة وجدتنى ألهث فى شدة وقد تبلل جسدى تمامـــا، واســـتقر فـــى قاع الزورق، كان قلبى يرتجف داخل صدرى دون أن أتمكن من التقاط أنفاسى.

حسن طالعى:

لم يكن عندى ما أقوله ضد حظى، فلو انقلب الزورق فى

الخامســة مســاء لمزقتنى أسماك القرش، ولكن هذه الحيوانات تصــبح هادئة فى الثانية عشرة ليلا، ويزداد هذا الهدوء عندما يكون البحر هائجا.

وعــندما استقر بى الأمر داخل الزورق وجدتنى أقبض بشــدة على المجداف الذى حطمه سمك القرش. حدث ما حدث فى سرعة متناهية، فكل جسدى بدأ يتحرك بالغريزة، وبعد فترة تذكــرت أن المجداف قد ارتطم برأسى عندما وقعت فى الماء، وقــد أمســكت بــه عندما بدأت أغرق، كان هذا هو المجداف الوحــيد الــذى بقــى بالزورق. أما الآخران فقد حملتهما مياه البحر.

وحتى لا أفقد هذه القطعة من العصا التى حطمتها أسماك القرش عمدت إلى ربطها جيدا بحبل من حبال المشربية، مازال البحر هائجا، وفى هذه المرة حالفنى الحظ، ولعلنى لا أستطيع اللحاق بالزورق إذا ما انقلب ثانية، وبينما أخذت أفكر فى مثل هــذا الأمــر وجدتنى أنزع حزامى وأشد وثاقى جيدا فى حبال المشربية.

ظلت الأمواج ترتطم بحافة الزورق، الذى أخذ يتراقص فــوق مياه البحر الهائج العكر. أما أنا فقد أصبحت آمنا بعد أن شددت وثاقى بالحزام إلى المشربية، وكذلك فقد أصبح المجداف فى أمان، وبينما أنا أبذل قصارى جهدى حتى لا أسمح بانقلاب الــزورق مــن جديــد، أدركت أننى كنت على وشك أن أفقد

القميص والحذاء، ولولا برودة الجو لتركتهما فى قاع الزورق عـندما انقلـب رأسـا علـى عقـب، ولانجرفا إلى الماء مع المجدافين.

إنــه لأمــر طبــيعى جدا أن ينقلب زورق فى مياه بحر هائج، فهو زورق مصنوع من الفلين ومبطن بقماش دهن بلون أبــيض غــير قابل للاختراق، وأرضية الزورق غير مستقرة، تتدلى من إطار الفلين، كما لو كانت سلة، وإذا ما كان بالإمكان أن ينقلــب الزورق فى الماء، فإن أرضيته تعمل على استعادة وضــعه الطبــيعى فى الحال، والخطر الوحيد يكمن فى فقدان الــزورق. ولهــذا أدركت أننى طالما قد شددت وثاقى بشبكته، فبإمكان الزورق أن ينقلب ألف مرة دون خوف يذكر لفقدانه.

كان ذلك حقا، لكن هناك أمرا لم يغب عن عينى قط: فلقد انقلــب الــزورق بطــريقة استعراضية للمرة الثانية بعد المرة الأولى بربع ساعة، فى البداية وجدتنى أتجمد بين لفحات الهواء البارد الرطب وضربات الرياح العاتية، رأيت الهوة أمام عينى، فأدركت فى أى جانب سيكون منقلب الزورق، لكن حزام الجلد الذى وثقت به جسدى إلى المشربية قد حال بينى وبين ما كنت أصــبو إليه، وفى لحظة فهمت ما كان يحدث: انقلب الزورق بأكملــه. كنت فى قاع الزورق وقد شد وثاقى إلى جانبه، كنت فى طريقى إلى الغرق ويداى تبحثان، هباء، عن إيزيم النطاق حتى تفكه.

في يأس، ولكن بلا تهور منى، حاولت فك الإبزيم، كنت أوقـــن بأنـــه ليس أمامى متسع من الوقت؛ ففى أفضل حالاتى الصحية يصبح بمقدورى أن أستمر أكثر من ثمانين ثانية تحت الماء. لم أعد أتنفس منذ اللحظة التى أدركت فيها أننى أصبحت فـــى قـــاع الزورق. مرت خمس ثوان على الأقل، أدرت يدى حـــول وسطى، فعثرت على الحزام فى أقل من ثانية، على ما أعتقد، وبعد ثانية أخرى وجدت الإبزيم، فقد كان ملتصقا بجانب الزورق، مما أجبرنى على محاولة الانفصال عنه بيدى الأخرى كـــى أخفـــف نســـبة الضغط، تأخرت كثيرا حتى عثرت على المكان الذى أمسك به جيدا، وبعد ذلك حاولت التخلص مما أنا فـــيه بـــيدى اليمـــنى قدر استطاعتى، عثرت يدى اليمنى على الإبزيم، عرفت وجهتها سريعا فأرخت النطاق.

وعـــندما فتح الإبزيم تركت جسدى يسقط من جديد نحو القـــاع دون أن أبتعد عن حافة الزورق. وفى جزء من الثانية وجدتـــنى حـــرا من قبضة الشبكة، أحسست بانفجار فى رئتى، استجمعت ما تبقى لدى من قوة، ثم أمسكت بحافة الزورق بكلتا يـــدى، وبلا إرادة منى، ومع ثقل وزنى لم أتمكن من عمل شئ سوى أن أقلب الزورق مرة أخرى، وبعدها وجدت نفسى أسفل منه.

كنـــت أبـــتلع المـــاء، وظل حلقى، الذى حطمه العطش، يحرقنى بشدة، غير أنه لم يلفت انتباهى كثيرا، فما كان يهمنى بالدرجة الأولى هو ألا أفقد الزورق، تمكنت من إخراج رأسى،

استنشقت الهواء، شعرت بقواى قد خارت، وما كنت أعتقد أنه بإمكــانى أن أصــعد إلــى الزورق عبر حافته، ولكننى كنت مفزوعا فى نفس الوقت، منغمسا فى مياه البحر التى رأيتها قبل ساعات مفعمة بأسماك القرش. كنت على يقين من أن ذلك اليوم سيشهد آخر جهد أبذله فى حياتى، فعولت على آخر ما تبقى لى من طاقة، وتخطيت حافة الزورق ثم استقر بى المقام فى قاعه خائر القوى.

لا أدرى كم من الوقت ظللت على هذا الحال، مضطجعا ووجهــى إلــى الســماء ، وحلقى يؤلمنى، وأطراف أصابعى تــرتجف بشدة وقد بدا منها اللحم. كنت أومن بأن هناك أمرين اثنيــن فقط يشغلان اهتمامى فى نفس الوقت: أن تهدأ رئتاى، وألا ينقلب الزورق مرة أخرى.

شمس الصباح:

وهكذا أصبح يومى الثامن فى البحر، كان صعبا عاصفا، وإذا ما أمطرت السماء فلن يصبح فى مقدورى أن أنتشل شيئا مــن الماء رغم إحساسى بأن الماء سوف يمنحنى القوة. ومع هــذا، فلم تجد السماء ولو بقطرة واحدة رغم أن رطوبة الهواء كانت تنذر بقرب هطول الأمطار، ظل البحر هائجًا فى الصباح ولم يهدأ إلا بعد الثامنة، وحينئذ أشرقت الشمس وعادت السماء فاكتست باللون الأزرق القاتم.

انكفـأت فوق حافة الزورق خائر القوى ثم تجرعت عدة جـرعات من الماء المالح، والآن أدركت أن تناول الماء ملائم لحلقـي. غير أننى كنت أجهل ذلك، ولم أكن ألجأ إلى الماء إلا عندما أصاب بغصة من شدة ما كان يؤلمنى- بعد سبعة أيام لم أتـناول فيها ماء قط، يصبح العطش إحساسا مختلفا: ألم شديد يصيب الحلق، والقَصْ، وخاصة أسفل عظام الترقوة، إنه قنوط الاختناق؛ لقد خفف الماء المالح آلامى.

بعد العاصفة التى هبت فى الصباح، عادت للبحر زرقته، مـثلما نراه فى اللوحات. وعلى مقربة من الساحل بدت جذور وجـذوع تطفـو فـى وداعه، بعد أن اقتلعتها العاصفة. عادت طـيور الـنورس تحلق فوق البحر. وفى هذا الصباح، عندما توقف النسيم بدا سطح الماء كلون المعدن وأخذ الزورق ينساب فـى رقة فى طريق مستقيم، وبث الهواء البارد بى قوة شملت جسدى وروحى.

حلق أحد طيور النورس، كبير الحجم، قاتم اللون، طاعن فـى السـن، فـوق الزورق. وهنا أيقنت أننى على مقربة من اليابسـة، كـان طائر النورس الذى أمسكت به منذ بضعة أيام صغيرا شابا، وطيور النورس فى مثل سنه تتمتع بقدره هائلة على الطيران. ومن الممكن أن يعثر الإنسان على هذه الطيور علـى مسافة عدة أميال داخل البحر، لكن طائرا عجوزا، كبير الحجـم، ثقيل الوزن كالذى حلق فوق الزورق فى يومى الثامن

يعد من تلك الطيور التى لا تبتعد عن الساحل قدر مائة ميل. دبت القوة بين جوانحى من جديد أملا فى المقاومة، بدأت، كسابق عهدى فى أيامى الأولى، أتفقد الأفق، فرأيت أعدادا هائلة من طيور النورس تقترب من كل فج.

أحسست بصحبة وسعادة، لم أكن أشعر بالجوع، وبدأت أتناول جرعات من الماء المالح أكثر من ذى قبل، أحسست بالصحبة وسط ذلك الجمع من طيور النورس التى كانت تحلق فوق رأسى، وتذكرت مارى أدرس: "ماذا حدث لها؟" سألتنى؛ فتذكرت صوتها وهى تعيننى على ترجمة حوارات الأفلام. فى هذا اليوم بالتحديد - اليوم الوحيد الذى تذكرت فيه مارى أدرس دون ما سبب، ربما لأن السماء قد امتلأت بطيور النورس - كانت هى داخل معبد موبيل الكاثوليكى تقيم صلاة من أجل أن ترقد روحى فى سلام. وحسب ما قالته لى مارى فى خطاباتها التى أرسلتها إلى قرطاجنة، فإن تلك الصلاة قد أقيمت فى اليوم الثامن لاختفائى، كانت من أجل أن تستريح روحى، وأعتقد الآن أنها كانت من أجل أن يستريح جسدى هو الآخر، ففى ذلك الصباح، بينما كنت أتذكر مارى أدرس، وكانت هى تحضر الصلاة فى موبيل، أحسست بسعادة غامرة وسط البحر، وأنا أتأمل طيور النورس التى أعلنت عن قرب اليابسة.

أمضيت معظم اليوم جالسا على حافة الزورق، أتفقد الأفق، عَمّ النهار صفاء مذهل، وكنت على يقين من أننى

شاهدت اليابسة على مسافة خمسين ميلا، وأخذ الزورق ينساب فـــى ســـرعة لم يكن يبلغها تحت قيادة رجلين مزودين بأربعة مجاديف، كان يبحر فى خط مستقيم، كما لو كان مزودا بمحرك يدفعه فوق سطح الماء الأزرق الأملس.

بعد قضاء سبعة أيام فى زورق، يصبح بمقدور الإنسان أن يـــدرك التغيير الطفيف الذى قد يطرأ على لون الماء. ففى الســـابع مـــن مارس، وفى الثالثة والنصف مساء، أدركت أن الـــزورق قـــد دلـــف إلـــى منطقة لا يكتسى الماء فيها باللون الأزرق، بـــل الأخضـــر القـــاتم، كانت لحظة رأيت فيها الحد الفاصل، من هذا الجانب، يوجد سطح الماء الأزرق الذى رأيته علـــى مـــدى ســـبعة أيـــام، ومن الجانب الآخر، يوجد السطح المخضـــر، والذى يبدو داكنا للغاية، كانت السماء تعج بطيور النورس التى مرت محلقة على ارتفاع منخفض جدا، أحسست خفقـــات أجنحتها القوية فوق رأسى، وقد كانت جميعها إشارات لا تخطـــئ، فتغيير لون الماء، ووفرة طيور النورس أرشدتنى إلـــى ضرورة أن أقضى الليلة ساهرا، متأهبا لاكتشاف الأنوار الأولى التى ستنبعث من الساحل.

الفصل العاشر

وضاعت الآمال.. حتى الموت

لـــم أكـــن بحاجة إلى أن أجهد نفسى حتى أنام فى ليلتى الثامـــنة فى البحر، وهاهو طائر النورس العجوز قد حط فوق حافة الزورق منذ الساعة التاسعة، ولم يبرح مكانه من الزورق طـــوال الليل. كنت مضطجعا فوق المجداف الوحيد الذى تبقى لـــى: القطعة التى حطمها سمك القرش. كان الليل هادئا، وظل الـــزورق يتقدم فى طريق مستقيم صوب نقطة محددة. إلى أين سيصـــل؟ سألت نفسى، وقد أصبحت على قناعة تامة لما رأيت مـــن دلائل- لون الماء وطائر النورس العجوز- بأننى سأكون فوق اليابسة فى اليوم التالى. كان الزورق يتحرك بفعل الرياح دون أن أدرى إلى أين تصير وجهته.

لـــم أكـــن متأكدا من أن الزورق مازال يحتفظ بوجهته الأولـــى. فلـــو ظـــل يسير فى نفس اتجاه الطائرات لأضحى وصـــوله إلى كولومبيا محتملا. غير أن معرفة مثل هذا الأمر بدون بوصلة يعد ضربا من المستحيل. إذا ما كان يتجه صوب الجـــنوب، فى خط مستقيم؛ فسيصل إلى شواطئ كولومبيا على الـــبحر الكاريـــبى، ولكـــنه من المحتمل أن يكون متجهًا ناحية الشـــمال، ووسط هذا كله أصبحت لا أدرى شيئا عن موضعى وسط مياه البحر.

فـــى منتصف الليل، عندما غلبنى النعاس، اقترب طائر النورس من رأسى ينقرها. وما تأذيت لنقراته، ظل ينقرنى فى رقة، دون أن يصيب جلد رأسى بأذى، فقد أحيط بشعر كثيف، بدا كما لو كان يداعبنى، وهنا تذكرت قائد سلاح المدمرة الذى حدثـــنى يوما فقال لى: لا يستأهل شرف البحرية كل بحار يقدم على قتل طائر النورس، وأحسست ندما على ما اقترفته فى حق صغير طائر النورس الذى أزهقت روحه هباء.

بقيـــت أتفقد الأفق حتى مطلع الفجر، لم يكن للبرد وجود فى هذه الليلة، لكننى لم أتمكن من رصد ضوئه على الإطلاق. فلم تكن هناك إشارات تصدر من الساحل. كان الزورق ينساب فـــوق مياه بحر صاف وهادئ، غير أننى لم أشعر بأى ضوء حولـــى سوى ضوء النجوم. وعندما بقيت ساكنا لا أتحرك بدا الطائـــر وقـــد غلبه النوم. خفضت رأسى ساكنا فى جانب من الـــزورق ورأيت الطائر هو الآخر لا يحرك ساكنا مدة طويلة، ولكن كلما تحركت قفز الطائر ثم بدأ ينقر رأسى.

وعـــند الفجر غيرت من وضعى الذى كنت عليه؛ فأصبح طائـــر الـــنورس عند قدمى، أحسست به ينقر حذائى. وبعد ذلك شـــعرت به يقترب عبر حافة الزورق. ظللت ساكنا، وظل طائر الـــنورس ســـاكنا لا يـــتحرك. وبعد ذلك حط بجوار رأسى فى ســـكون، ولكـــن بمجـــرد أن حركت رأسى بدأ ينقر شعرى فى حنان، وتحول الأمر لمجرد لعبة، عدلت من وضعى عدة مرات،

وفـــى كـــل مـــرة يحافظ الطائر على التغيير، فوقف عند رأسى لمـــرات مماثلـــة. وفـــى الصباح، ودون أن أكون فى حاجة إلى توخى الحذر فى الحركة، بسطت يدى وأمسكت به من عنقه.

مـــا كنـــت أفكر فى إزهاق روحه؛ فخبرتى مع الطائر الآخـــر علمتـــنى أن مثل هذا الأمر إنما هو بمثابة تضحية لا طائل من ورائها. كنت أتضور جوعا، غير أننى لم أفكر فى أن أذهـــبه على حساب ذلك الحيوان الصديق، الذى رافقنى طوال الليل، دون أن يلحق بى ضررا. ولما أمسكت به بسط جناحيه، ثم انتفض فى غلظة محاولا الإفلات من بين أصابعى، وما هى إلا لحظـــة حـــتى عقـــدت جناحيه فوق عنقه كى أقيد حركته. وحينـــئذ رفع رأسه، فرأيت عينيه مع إشراقة الصباح الأولى، عينيـــن شفافتين، بهما فزع رهيب، وفى لحظة ما خطر لى أن أمـــزقه إربا، غير أن منظر عينيه الحزينتين الكبيرتين قد حال بينى وبين هذه الفكرة.

طلعـــت الشمس مبكرا، وبلغ من حدتها أن جعلت الماء يغلـــى مـــنذ الســـابعة، وما أزال راقدا بالزورق، أمسك بطائر النورس فى إحكام. ومازالت الخضرة الكثة تكسو سطح الماء، كعهـــده بالـــيوم الســـابق، غير أنه لم تظهر علامات تدل على الشـــاطئ فى أية ناحية. كان الهواء خانقا، وهنا أطلقت سراح أســـيرى، فنفض رأسه وانطلق إلى عنان السماء، وما هى إلا دقيقة حتى انضم إلى سرب طيور النورس.

كانـــت الشمس فى هذا الصباح – الصباح التاسع لى فى الـــبحر – أكـــثر حـــرقة عـــنها فى الأيام السالفة كلها. ورغم حرصى على ألا تضرب أشعة الشمس رئتى، إلا أن ظهرىٍ قد انتشـــرت علـــى جنـــباته أمبولات منتفخة. كان علىَّ أن أنحّى المجـــداف الذى كنت أتكئ عليه جانبا ثم انغمس فى الماء، فما عـــدت أحتمل أن يلامس الخشب ظهرى. أحرقت الشمس كتفى وذراعى، فلم أعد أطيق حتى لمس جلدى بأصابعى، الذى بدأت أشـــعر بـــه وكأنه تحول إلى حمرة متقدة. أحسست التهابا فى عيـــنى، ومـــا أصبح بمقدورى أن أثبتهما فى أى مكان؛ حيث امـــتلأ الهـــواء بدوائر مضيئة تصيب بالعمى، ولم أكن أدرك، حـــتى هذا اليوم، حقيقة الحالة المحزنة التى كنت عليها. كنت منهكا، وأصابتنى قرحة بفعل ملح الماء والشمس. وفى سهولة تامة بدأت أنزع قطعا من جلد ذراعى ظهرت أسفل منها طبقة حمـــراء ملســـاء، وما هى إلا لحظة حتى شعرت بالجزء الذى نزع عنه الجلد ينتفض ألمًا، وبمسامى تقطر دما.

ولم أنتبه للحيتى على الإطلاق، فها أنا لم أحلقها منذ أحد عشر يوما، أصبحت لحية كثة، بلغت عنقى. غير أننى لم أطق لمســـها؛ حيـــث كان جلدى يؤلمنى إيلاما شديدا، بعد أن ألهبته أشـــعة الشمس. وعندما بدأت أفكر فى وجهى الشاحب وجسدى المنـــتفخ، تذكرت ما عانيت منه طوال أيام وحدتى ويأسى التى مضـــت. وعـــاودنى الشـــعور بالقنوط، وحتى الآن لم تظهر العلامات الدالة على الساحل. حان وقت الظهيرة، وها أنا أفقد

الأمل فى الوصول إلى اليابسة، ومهما بلغت السرعة التى تقدم بها الزورق فقد أصبح من المستحيل أن يصل إلى الشاطئ قبل الغــروب، إذا ما لاحت فى هذا الوقت، من أية ناحية، الشواهد الدالة على الساحل.

أمنية الموت:

هــاهى الســعادة التى نسجت خيوطها على مدى اثنتى عشــرة ســاعة تتبخر فى دقيقة واحدة، دون أن تخلف وراءها أثــرا، خــارت قواى، ونفضت عنى همومى جميعها. وهاهى المرة الأولى على مدى سبعة أيام أنام فيها مستلقيا على بطنى، وظهرى المحروق معرض للشمس، صدر ذلك منى دون شفقة بجسدى، رغم يقينى بأننى لو ظللت على هذا الوضع لاختنقت قبل الغروب.

هــناك لحظــة تمر بالإنسان لا يشعر فيها بالألم. انعدم الإحســاس وتخدر العقل لدرجة يفقد فيها المرء وعيه بالزمان والمكــان. كنــت منبطحا فى أرضية الزورق أتكئ بيدى على حافته وقد أرحت ذقنى فوق ذراعى، وهنا بدأت أحس عضات الشــمس فــى غير رحمة، رأيت الهواء مفعما بدوائر مضيئة لســاعات عديدة، أغمضت عينى منهكا، وقد كفت الشمس عن إلهاب جسدى بأشعتها. ما كنت أحس جوعًا أو عطشا، لم أكن أشــعر بشىء، فانتابتنى حالة من عدم اكتراث بالحياة والموت، تخيلت أننى أحتضر؛ فغمرنى هذا الخيال بأمل مظلم وغريب.

وما أن فتحت عينى حتى وجدتنى أعود لتوى من موبيل. كـــان الحـــر خانقـــا؛ فذهبت إلى حفلة فى الهواء الطلق برفقة أصدقاء آخرين بالمدمرة من بينهم اليهودى ماسى ناصر، الذى يعمـــل بائعـــا بمتاجر موبيل، حيث كنا نحن البحارة، نشترى ملابسنا، هو الذى قدم إلى البطاقات. وكان يكرس جهده للعناية بالبحاريـــن الكولومبيين طيلة مدة الثمانية أشهر التى استغرقتها عملـــيات إصـــلاح السفينة، واعترافا منا بفضله علينا لم نكن نشترى شيئا نحتاج إليه من متجر آخر غير متجره ، كان يجيد الحديـــث بالإسبانية، رغم تأكيده المتكرر لنا بأنه لم يذهب قط إلى أى من البلاد الناطقة بهذه اللغة.

فـــى مثل هذا اليوم- كعادتنا أيام السبت- جلسنا- نحن البحارة الكولومبيين ومعنا عدد من اليهود- حيث الهواء الطلق. وفوق المنصة الخشبية كانت راقصة أيام السبت نفسها تتمايل، عارية البطن، ملثمة الوجه، كما تفعل راقصات الأفلام العربية، وأمـــا نحـــن فقد كنا نصفق ونحتسى علب البيرة. وكان ماسى ناصـــر أسعد الجالسين، ماسى العامل اليهودى بمتاجر موبيل، الذى كان يبيع لنا جميعا الملابس الناعمة بثمن زهيد.

لا أدرى كـــم من الوقت بقيت هكذا، مخدرا، أتخيل حفلة موبـــيل. ولا أعلم شيئًا سوى أننى قفزت فجأة داخل الزورق، وأن المساء قد أقبل. وفى تلك الأثناء شاهدت، على بعد خمسة أمـــتار تقريـــبا، ســـلحفاء ضخمة الجسم صفراء اللون، منقطة

الـــرأس كالنمر، لها عينان راسختان جامدتان ككرتين هائلتين مـــن الزجاج، يرقبانني في هلع، ظننت في بداية الأمر أنها لا تعدو أن تكون طيفا آخر، ثم جلست في الزورق مفزوعا، كان طـــول هـــذا الحيوان الفظيع- من ذيله حتى رأسه- يقرب من أربعـــة أمـــتار، ومـــا إن تحركت حتى انغمس في الماء مخلفا وراءه زبـــدا كثيرا . وما دريت إذا كان حقيقة أم خيالا، وحتى الآن لا أجـــرؤ علـــى تخمين ذلك، رغم أنني ظللت أنظر إليها مدة، كانت سلحفاء عملاقة، صفراء اللون، تسبح أمام الزورق، ترفع رأسها المخيفة والمنقطة فوق سطح الماء، وسواء أكانت حقيقة أم خيالا، فأنا على يقين من أن الزورق كان سيدور عدة مرات حول نفسه لو لمسته تلك السلحفاء.

عـــاودني الخـــوف مـــن جديد بسبب رؤية ذلك المنظر البشـــع، ولكن الخوف قد زادني قوة؛ فأمسكت بقطعة المجداف وجلست في الزورق، متأهبا لنزال هذا الحيوان الفظيع أو غيره مـــن الحـــيوانات التي تحاول أن تقلب الزورق، كانت الساعة تقـــترب مـــن الخامسة، وكعادتها في مراعاتها للمواعيد، بدأت أسماك القرش تظهر على سطح الماء.

نظـــرت إلـــى جانب الزورق حيث أدون الأيام، فعددت ثمانية خطوط، غير أنني تذكرت بأني نسيت تدوين ذلك اليوم، فرسمت خطه بالمفاتيح، وأصبحت مقتنعا بأنه سيكون آخر خط أرســـمه، ثـــم أحسست يأسا وغيظا أمام أمر تأكد لي: إذا كان

بقـــائى علــى قيد الحياة صعبا، فإن الموت أصعب. وفى هذا الصـــباح خيّرت بين الموت والحياة، فاخترت الموت، ومع هذا بقيت على قيد الحياة، وقطعة المجداف فى يدى، متأهبا للصراع مـــن أجل الحياة، ومن أجل الشيء الوحيد الذى لم يكن يهمنى على الإطلاق.

الجوع اللغز:

فـــى وسط تلك الشمس المعدنية، وذلك اليأس، والعطش الـــذى أصــبح - ولأول مـــرة لا يطـــاق، حدث أمر لا يمكن تصديقه: وجدت جذعا أحمر اللون أسيرا لحبال شبكة الزورق يشبه تلك الجذوع التى يسحقونها فى بوياكا ليستخرجوا الألوان مـــنها، والتى لا أتذكر اسمها، لا أعرف منذ متى وهذا الجذع هنا. فعلى مدى الأيام التسعة التى قضيتها لم تشاهد عيناى قط أى قـــذى مـــن العشـــب فوق سطح الماء، ومع هذا، ودون أن أدرى كـــيف بدا ذلك الجذع هناك أسيرًا لحبال الشبكة، كإعلان آخر لا يخطئ عن اليابسة التى لا أرى لها أثرا فى أى جانب.

بلـــغ طول الجذع ثلاثين سنتيمترا. أحسست جوعا، غير أنه لم يكن بمقدورى أن أفكر فيه، فبدأت أقضم - لا ألوى على شـــئ - هـــذا الجذع، أحسست فيه طعم الدم. انساب منه زيت لـــزج القوام، حلو الطعم، رطب حلقى، وقد تخيلت أن له طعم السم، غير أننى تابعت التهام قطعة العصا المعوجة، حتى أتيت على آخر فلقة منها.

مــازال الجــوع يلهبنى بسياطه حتى بعد أن فرغت من التهام العصا، تخيلت أن ذلك الذى أكلت إنما هو غصن زيتون. وهنا تذكرت القصة المقدسة: عندما أطلق نوح العنان للحمامة عــادت مرة أخرى إلى الفلك تحمل غصن الزيتون، فكان فى ذلــك إشــارة إلى أن مياه البحر قد بدأت تنحسر عن الأرض ثانــية، وقادتنى ظنونى إلى الاعتقاد بأن غصن الزيتون الذى حملــته الحمامــة، كان يشبه ذلك الذى أذهبت به الجوع الذى قاسيته على مدى تسعة أيام.

إن المرء بإمكانه أن يظل مدة عام كامل فى مياه البحر، غــير أنه يأتى عليه يوم يصبح من المستحيل أن يطيق ساعة واحدة بعده. فى اليوم السابق تخيلت أن الفجر سيطلع على فى اليابسة. وها قد مرت أربع وعشرون ساعة دون أن أرى غير الماء والسماء. لم أعد أنتظر شيئا. كانت هذه هى ليلتى التاسعة فى البحر. "تسع ليال مرت على وفاتى". فكرت فى هذا الأمر، مفــزوعا، رغم يقينى الكامل بأن بيتى فى حى أولايا ببوجوتا، يعج فى مثل هذه الساعة بأصدقاء العائلة، وغدا سيفرغون من حفل تأبينى ثم يتعودون شيئا فشيئا على فراقى.

وحــتى هذه الليلة لم أفقد الأمل فى أن يتذكرنى أحد، أو أن يهــب لإنقــاذى، ولكنــنى عندما تذكرت أن تلك الليلة هى بالنسبة لعائلتى تاسع ليلة تمر على وفاتى، آخر ليلة فى مراسم جنازتى، شعرت بالضياع التام فى مياه البحر، وبدأت أفكر فى أن أفضل ما يمكن أن يحدث لى الآن هو الموت.

اضــطجعت فى أرضية الزورق، ورغبت فى أن أُعلى صــوتى قائلا: "لن تقوم لى قائمة بعد"، لكن صوتى ضاع فى حلقــى. تذكــرت المدرسة، رفعت ميدالية عذراء الكارمن إلى فمى ثم شرعت أصلى فى مخيلتى، زاعما أن عملى هذا يتوافق زمنــيا مع ما تقوم به أسرتى فى منزلى، وهنا شعرت بحالتى تتحسن، وأدركت أننى ملاق منيتى..

الفصل الحادى عشر

فى اليوم العاشر، طيف آخر: اليابسة

طـــال بـــى ليل اليوم التاسع أكثر من غيره، نمت داخل الزورق وبدأت الأمواج تتكسر على حافته فى رقة بالغة، غير أنـــنى لـــم أكـــن أملك زمام حواسي. وفى كل مرة ارتطم فيها المـــوج بجانب رأسى أحسست وكأن الكارثة تتكرر. وقد قيل: إن من يعانى سكرات الموت يستعيد شريط ذكرياته، وهذا هو ما حدث معى فى ليلة الاسترجاع تلك. فها أنا أرى نفسى مرة أخـــرى فـــى المدمـــرة مضطجعا بين الثلاجات والمدافئ، فى المؤخرة، إلى جانب رامون إبريرا، وألمح لويس رينخيفو يقوم بدور الحراسة، وذلك على أثر استرجاع محموم لما جرى فى منتصـــف يوم الثامن والعشرين من شهر فبراير، وفى كل مرة تكســـرت فيها الأمواج على حافة الزورق، أحسست بالحمولة تـــنزلق، وأننى آخذ طريقى إلى قاع البحر، ثم أعود فأسبح إلى أعلى، محاولا بلوغ سطح الماء.

تكـــررت أمـــام عينى، دقيقة بدقيقة، أيامى التسعة التى أمضيتها وحيدا مكروبا، جوعانا، عطشانا فى مياه البحر. كانت الصـــورة جلـــية كأنها تعرض على شاشة سينمائية، رأيت فى الـــبداية حـــادث الســـقوط، ثم أتبعه رفاقى، يتصايحون حول

الزورق، ثم الجوع والعطش، أسماك القرش، وذكريات موبيل، كلها بدأت تتابع واحدة بعد الأخرى. أخذت حذرى حتى أتجنب السقوط، ووجدتنى مرة أخرى فى مؤخرة المدمرة، أحاول أن أشد وثاقى حتى لا يجرفنى الموج. شددت وثاقى بطريقة مؤلمة: آلمنى رسغاى ومعصماى وخاصة ركبتى اليمنى. ورغم الحبال التى شدت بإحكام، إلا أن الموج ظل يلاحق بعضه بعضا حتى جرفنى إلى قاع البحر. وما أن أفقت حتى وجدتنى أسبح نحو سطح البحر، وأكاد أختنق.

فكرت قبل أيام أن أشد وثاقى بالزورق، وكان لزاما علىَّ أن أفعل ذلك فى تلك الليلة، غير أننى لم أستطع نصب جسدى بحثا عن حبال الشبكة، وهنا عجزت عن التفكير، ولأول مرة على مدى تسعة أيام أعجز عن إدراك ما كنت فيه. وفى مثل الحالة التى كنت عليها يصبح عدم إطاحة الموج بى إلى قاع البحر ونجاتى من بين براثنه أمرًا أشبه بالمعجزة. فما كنت سأشعر بشيء؛ فقد اختلطت الحقيقة عندى بالخيال. ولو أن موجه قلبت الزورق، لأحسست ذلك، وهما آخر، ولأحسست أننى أسقط مرة أخرى من المدمرة- كما احتسبت بذلك عدة مرات فى تلك الليلة- ثم هويت، فى ثانية، إلى قاع البحر لأكون طعاما لأسماك القرش التى طال انتظارها على مدى تسعة أيام صابرة بجوار الزورق.

نجوت فى هذه الليلة بفضل فألى الحسن؛ فهو يحمينى.

كنت فاقد الوعى، أسترجع، دقيقة بدقيقة ما كنت فيه من عزلة طــوال تســعة أيام، ورأيتنى آمنا كما لو أن وثاقى قد شد إلى الزورق.

وفى ساعات الصبح الأولى أصبحت الرياح باردة. كنت محموما، وكان جسدى الملتهب يرتجف، وقد أشرب القشعريرة حــتى العظــام، بدأت ركبتى اليمنى تؤلمنى، وأصابها الجفاف بفعل أملاح البحر، إلا أنها مازالت تتحرك كعهدى بها فى أول يوم. كنت أحرص دائما على ألا تصاب بأذى، ولكن، فى هذه اللــيلة، بينما كنت مضطجعا بأرضية الزورق، اتكأت بها على أرضيته وظل الجرح ينبض فى ألم شديد، وها أنا أملك فى يدى أسباب قناعتى بما لهذا الجرح من فضل علىَّ فى إنقاذ حياتى. وكمــن يوجد بين الضباب، بدأت أشعر بالألم. أحس بما يدور فى جسدى، أحسست بالريح الباردة تلفح وجهى الساخن، والآن أدركــت أننى ظللت أردد لساعات طويلة أشياء مبهمة، أتحدث مــع رفــاقى، أتــناول الجيلاتى مع ماريا أدرس فى مكان به موسيقى غريبة.

بعد ساعات كثيرة لا تحصى أحسست أن رأسى ينفجر. انتفض صدغاى، وحل الألم بعظامى، شعرت بأن ركبتى التى ظهــر باطنها قد توقفت بسبب الورم، بدت كما لو كانت كبيرة الحجم تفوق جسدى بكثير.

ومــا دريت بنفسى داخل الزورق إلا فى ساعات النهار

الأولـــى، وكذلــك فلم أدرِ كم وقتا استغرقت على هذا الحال. وتذكرت، بعد جهد جهيد – أننى قد رسمت خطوطا جديدة على جانـــب الزورق، غير أننى لا أذكر فى أى وقت رسمت الخط الأخـــير. يبدو لى أنه قد مر زمن طويل منذ ذلك المساء الذى التهمــت فيه الجذع الذى عثرت عليه أسيرا فى حبال الشبكة، هــل كـــان حلما؟ ومازلت أتذوق فى فمى طعما حلوا ولزجا، غـــير أنـــنى عـــندما أردت أن أستعيد ما تناولته من طعام، لم تســعفنى ذاكـــرتى فى الإشارة إليه، إنه لم يمدنى بالقوة. ربما التهمته عن آخره، إلا أننى أحسست بمعدتى خاوية، كنت خائر القوى.

كم يوما مضى منذ ذلك الحين؟ أدركت أن الفجر قد لاح، غـــير أننى لم أستطع أن أتبين ما أمضيت من ليالى منهكا فى قـــاع الـــزورق، أنتظر موتا هو أشد جفاء من اليابسة. اكتست السماء بالحمرة، كوقت الغروب تماما، وقد كان ذلك عاملا آخر من عوامل الإبهام؛ فوقتها لم أكن أدرى ما إذا كان يوما جديدا، أو مساء جديدا.

يابســة:

تملكـــنى الـــيأس من شدة ما أصابنى من ألم فى ركبتى، فحاولت أن أعدل من وضعى. رغبت فى أن أستدير بجسدى، إلا أن ذلـــك كـــان ضربا من المستحيل، شعرت بإرهاق شديد

رأيـــت معــه مـــن المستحيل أن أهب واقفا على قدمى، وهنا حركـــت ساقى الجريح ورفعت جسدى متكئا على يدى فى قاع الزورق ثم هويت بجسدى مستلقيًا على ظهرى. ورأسى يستند إلـــى حافـــة الزورق. كان الفجر قد لاح . نظرت إلى الساعة، كانـــت الــــرابعة فجرا. وفى مثل هذه الساعة من كل يوم كنت أتفقد الأفق، غير أننى لم أعد آمل الآن فى رؤية اليابسة، بقيت أرقب السماء، أراها تتحول من حمرة غضة إلى زرقة شاحبة، مـــازال الهـــواء باردا، وجسدى ساخنا، وركبتى تخفق فى ألم شـــديد.. شعرت بأن حالتى قد ساءت لعدم قدرتى على مفارقة الحـــياة. كنـــت مـــنهكا تماما، غير أننى مازلت حيا، ولّد هذا الاعـــتقاد عندى شعورا بالخذلان. فأدركت أننى لن أعيش بعد هـــذه الليلة. ومع هذا، بقيت كعادتى دائما، أتألم داخل الزورق وأستقبل يوما جديدا. إنه يوم آخر، يوم لا عمل فيه، يوم تطلع فيه شمس لا تطاق، وتظهر فيه جموع من أسماك القرش تدور حول الزورق منذ الخامسة مساء.

عندها اكتست السماء بلونها الأزرق، بدأت أرقب الأفق؛ فوجـــدت المـــاء فـــى كـــل ناحية هادئا مخضرا. ورأيت أمام الزورق، فى ظليل الفجر، ظلا حالكا ممتدا، إنها أشباح أشجار الجوز الهندى تنعكس على صفحة السماء الصافية.

أحسســـت حـــنقا؛ ففـــى اليوم السابق رأيتنى فى إحدى الحفـــلات بميـــناء موبـــيل، وبعد هذا شاهدت سلحفاء عملاقة

صـــفراء اللـــون، وأثـــناء الليل رأيتنى فى بيتى ببوجوتا، فى مدرســـة بيابيثينيثيو، ومع رفاقى بالمدمرة، والآن أرى اليابسة. ولـــو أنـــنى تخيلت هذا الأمر منذ أربعة أو خمسة أيام لجننت فرحا، لأرسلت بالزورق إلى الشيطان وبقيت بنفسى إلى الماء حتى أعجل ببلوغ الشاطىء.

لكـــن الحالة التى كنت عليها كانت بمثابة مصل واق من كل خيال. وكانت أشجار الجوز الهندى واضحة تماما بدرجة لا تـــدع مجـــالا للشك فى حقيقتها. وكذلك، فما كنت أراها على مســـافة ثابتة. ففى بعض الأحيان كنت أراها بجوار الزورق، وفـــى أحيان أخرى على مسافة اثنين أو ثلاثة كيلو مترات مما جعلـــنى لا أشعر بالفرح، وأتشبث برغبتى فى الموت، قبل أن تسلمنى التهيؤات للجنون. عدت أنظر إلى السماء ثانية، فرأيتها فـــى هذه اللحظة عالية، لا سحب فيها، وقد اكتست بلون أزرق داكن.

فى الرابعة وخمس وأربعون دقيقة لاحت فى الأفق أشعة الشمس الساطعة. ومن قبل، كان ينتابنى شعور بالخوف لمجىء اللـــيل، أمـــا الآن فقد بدت لى شمس اليوم الجديد عدوا. رأيتها عدوا عملاقا لا يرحم، قد أتى ليعض جلدى المتقرح، ليصيبنى بالجنون من شدة الجوع والعطش، فلعنت الشمس، لعنت النهار، لعنـــت حظـــى الذى مكننى من أن أتحمل تسعة أيام فى العراء بـــدل أن يمهد لى طريقا إلى الموت جوعا، أو ممزقا بواسطة أسماك القرش.

عـــدت إلى حالة الذعر من جديد، وعليه فقد أخذت أفتش فى قاع الزورق عن قطعة المجداف لاتكئ عليها، وما سبق لى مـــن قبل أن نمت على وسادة صلبة. ومع هذا، فقد كنت أبحث فـــى لهفة عن قطعة العصا التى هشمتها أسماك القرش لأريح رأسى فوقها.

كـــان المجـــداف بقاع الزورق، مربوطا بحبال الشبكة، ففككـــته، مددتـــه تحت ظهرى المتألم ثم وضعت رأسى على جانب الزورق. كان ذلك عندما رأيت صورة الساحل الأخضر الممتد واضحة تماما، تنعكس على صفحة الشمس الحمراء التى بزغت من جديد.

كانـــت الســـاعة تقـــترب من الخامسة، وبدا الصباح فى صفاء تام، وما عاد هناك مجال للشك فى أن اليابسة أمر واقع. وحينئذ، وبمجرد أن رأيت اليابسة، تجددت أفراحى التى تلاشت علـــى مـــدى الأيـــام السابقة، أفراح الطائرات، وأنوار السفن، وطيور النورس، ولون الماء.

لـــو أنـــنى تناولت فى مثل هذا الوقت بيضتين مقليتين، وقطعـــة من اللحم، وقهوة باللبن، وخبزا- إفطارا كاملا نتناوله بالمدمـــرة مـــا شعرت بمثل هذه القوة التى وانتتنى بعدما رأيت ذلـــك الشىء الذى اعتقدته اليابسة حقا، وبقفزة واحدة وجدتنى واقفـــا؛ فرأيـــت ظلال الساحل وصورة أشجار الجوز الهندى تجاهى فى غاية الوضوح. ما رأيت ضوءًا قط، اللهم إلا أشعة

الشمس الأولى الساطعة فى بريقها المعدنى، والتى ظهرت عن يميـــنى، على مسافة تقرب من عشرة كيلو مترات، عند الوهاد الموجودة على امتداد الساحل.

أمســـكت – أكـــاد أجـــن من الفرحة – بقطعة المجداف الوحـــيدة المتبقـــية محـــاولا دفع الزورق فى خط مستقيم حتى الساحل.

قدرت المسافة الفاصلة بين الزورق والساحل بألفى متر، تحطمت يداى، وآلمنى ظهرى من جراء عملية التجديف. غير أنـــنى لم أكن لأتحمل تسعة أيام أو عشرة إذا أضفنا اليوم الذى مـــا إن طلـــع – حـــتى أرفض الآن أن اليابسة توجد تجاهى. تصـــببت عرقا، وجففت الرياح الباردة عرقى وألحقت بعظامى ألما محموما؛ رغم هذا، فقد واصلت التجديف.

لكن، أين هى اليابسة؟

لم يكن مجدافا لمثل هذا الزورق، كان قطعة من العصا، وكذلك فما كان يصلح لأن يكون مجسا أتأكد به من عمق الماء. وفى الدقائق الأولى، واتتنى قوة غريبة نتيجة حماسى، فجعلتنى أتقـــدم بعض الشىء، إلا أننى أحسست بعد ذلك بإرهاق شديد، فرفعت المجداف برهة، أتأمل الخضرة الوفيرة التى تزداد أمام ناظـــرى، فرأيـــت تـــيارا موازيا للساحل يدفع الزورق صوب وهاده.

وهنا أسفت لفقد المجدافين اللذين كانا بحوزتى، وأدركت أن واحــدا منهما بحالته الكاملة قبل أن تحطمه أسماك القرش، كذلــك الذى أحمله فى يدى، كان بمقدوره أن يتحكم فى التيار، وفـــى لحظــة من اللحظات توقعت أننى سأتحلى بالصبر الذى يجعلــنى أنــتظر وصول الزورق إلى الوهاد، التى كانت تلمع تحــت أشــعة شمس الصباح الأولى كجبل من الإبر المعدنية، وفـــى هذه اللحظة فقد أصابتنى خيبة أمل فى أن ألمس الأرض تحــت قدمـــى، فأحسست أن الأمل بعيد، بعدها أدركت أن تلك كانت ملاطم بونتا كاريبانا، ولو أننى سمحت للتيار بأن يجرفنى لتهشمت نتيجة ارتطامى بالصخور.

حاولــت تقدير مابى من قوة؛ حيث كنت فى حاجة لأن أســبح مسافة كيلو مترين حتى أبلغ الساحل. فعندها أكون فى حالة جيدة يصبح بإمكانى أن أقطع مسافة كيلو مترين عائما فى أقــل من ساعة.. غير أننى لا أدرى كم من الوقت يمكننى أن أظل عائما بعد عشرة أيام ودون أن أتناول أى طعام غير قطعة مــن السمك وجذعا. وهاهى الأورام قد انتشرت بجسدى بفعل الشمس، كما جرحت ركبتى. لكن تلك كانت فرصتى الأخيرة، ومـــا كان عندى وقت حتى أفكر فيما أنتوى عمله، ولا لأتذكر أسماك القرش. ففككت المجداف، أغمضت عينى ثم ألقيت بنفسى إلى الماء.

ومـــا أن لامســـت الماء البارد حتى استعدت قواى، وما

عـــدت أبصـــر الساحل من فوق مستوى سطح البحر، وما أن استقر جسدى فى الماء حتى أدركت أننى قد ارتكبت خطأين: لم أنزع القميص عنى ولم أربط حذائى. حاولت جاهدا ألا أغرق، وكان هذا أول ما يجب علىَّ أن أفعله قبل أن أبدأ العوم. نزعت القميص عنى ثم أحكمت شده حول خصرى، وبعد ذلك ربطت حذائـــى، وهنا بدأت أعوم، تملكنى اليأس فى البداية، وبمرور الوقـــت أصـــبحت أكثر هدوءًا، أحس، مع كل ضربة أضربها بذراعى، بنقص فى قواى، والآن لم أعد أرى اليابسة.

لـــم أكن قد تقدمت مسافة تصل إلى خمسة مترات عندما شـــعرت بسلســـلة ميدالـــية "عذراء الكارمن" تنفرط، توقفت، وتمكنت من التقاطها فى نفس الوقت الذى بدأت تغوص فيه فى الماء الأخضر الهائج، وبما أننى لا أجد وقتا يجعلنى أحتفظ بها فى جيوبى، فقد عضضت عليها بنواجذى ثم تابعت السباحة.

والآن لم أعد أقوى على شئ. ومع هذا، مازلت لا أرى اليابســـة، كانـــت شـــبحا آخر. أنعشنى الماء البارد وأيقظ كل حواسى مرة أخرى، بينما كنت أسبح يائسا صوب شاطئ الوهم سبحت كثيرا، وأصبح من الصعب أن أعود بحثا عن الزورق.

الفصل الثانى عشر

بعث فى أرض غريبة

وبعـد أن ظللت عائما فى يأس طيلة خمس عشرة دقيقة فقـط بـدأت أرى اليابسة، كنت ما أزال على مسافة تزيد على الكـيلو مترين منها. وهنا لم يعد لدى أدنى شك فى أن ما أراه حقيقة لا خيالا، كانت الشمس تصبغ قمم أشجار الجوز الهندى بلـون ذهبى، ولم تكن هناك أية أنوار تنبعث من الساحل، وما كـان هناك من أثر لقرية تذكر أو منزل يمكن أن يرقبه المرء من مياه البحر، لكنها كانت اليابسة.

وقبل مرور عشرين دقيقة أحسست بتعب شديد، ومع هذا فقد آمنت بحتمية الوصول. كنت أسبح فى ثقة تامة، أحاول ألا يفقدنـى حماسـى القـدرة على التماسك والسيطرة. لقد عشت نصـف عمـرى فـى مياه البحر، غير أننى لم أفهم ولم أقدر مطلقـا- مثلما فعلت فى صباح اليوم التاسع من شهر مارس- أهمية أن يكون المرء سباحًا ماهرًا. ورغم إحساسى بأن قواى تـنهار شيئا فشيئا تابعت السباحة صوب الساحل، وكلما تقدمت رأيت بوضوح أكثر صورة أشجار الجوز الهندى.

طلعـت الشـمس فى نفس الوقت الذى اعتقدت فيه أننى سـألمس قاع البحر، حاولت أن ألمسه، فوجدته ما يزال غائرا،

وبدا لى بداهة أننى لم أكن أتواجد فى محازاة أى من الشواطئ، وكــان المــاء غائــرا حتى عند أقرب نقطة من الشاطئ، مما جعلنى أواصل السباحة. لا أدرى تحديدا كم من الوقت سبحت، ومــا أدركــته هو أننى كلما اقتربت من الشاطئ زادت حرارة الشــمس فــوق رأسى، غير أنها لم تعد تؤلم جسدى الآن، بل زادت مــن تحفــيز عضلاتى. وفى هذه اللحظة، وأنا أخوض الأمــتار الأولــى، دفعــنى المــاء البارد إلى التفكير فى الشد العضــلى، إلا أن الجسد قد اكتسب حرارته بسرعة. وبعد ذلك خفــت بــرودة الماء، وبدأت أسبح فى تعب، كمن يسبح وسط السـحاب، ولكــن فى حماس وإيمان فاقا ما كنت أشعر به من جوع وعطش.

رأيــت الخضرة الكثيفة واضحة تمام الوضوح فى ضوء شمس الصباح الفاترة، عندما تحسست قاع البحر للمرة الثانية. هــاهى الأرض أسفل حذائى، وياله من شعور غريب أن يطأ المــرء وجه الأرض بعد عشرة أيام على متن زورق فى مياه البحر.

ومع هذا، فقد أدركت سريعا أنه مازال ينقصنى أسوأ ما فى الأمر، كنت منهكا تماما، وما استطعت الوقوف على قدمى، فدفعتــنى موجه سفلية فى عنف إلى داخل البحر. كنت ما أزال ممســكا بميدالية " عذراء الكارمن" بين أسنانى. شعرت بأننى أحمــل أثقــالا فوق جسدى نتيجة الملابس وحذاء الكاوتشوك.

ورغــم مثل هذه الظروف العصيبة، فإن المرء يحاول أن يبقى على حياته؛ فهدانى تفكيرى إلى أنه بإمكانى أن ألتقى - خلال لحظـــات وجــيزة- بأحد من الناس. وهكذا، واصلت صراعى ضد الأمواج التحتية دون أن أنزع ملابسى عنى، والتى عاقت تقدمـــى، رغم إحساسى بأننى سوف أسقط مغشيا علىَّ من شدة التعب.

بلغ ارتفاع الماء أعلى منتصف جسدى، وبمجهود مشوب بقلــيل مـــن الـــيأس، تمكنت من الوصول إلى حيث بلغ الماء فخـــذى، وحينئذ قررت أن أزحف؛ فقمت بتثبيت ركبتى وكفى علـــى الأرض ثم دفعت بجسدى إلى الأمام، إلا أن ذلك كله قد ذهـــب ســـدى؛ حيث اضطرتنى الأمواج إلى التراجع، أضرت الرمال الناعمة الصلبة جرح ركبتى. وأدركت فى هذه اللحظة أن جـــرحى ينزف دما، غير أننى لم أتألم. بدت أناملى لحما قد تعـــرى من الجلد، ورغم إحساسى بالرمال تتسلل بين أظافرى، غرست أصابعى فى الأرض ثم حاولت الزحف. وفجأة داهمنى الخـــوف مرة أخرى: الأرض، أشجار الجوز الهندى بكسوتها الذهبـــية تحـــت أشعة الشمس، كل هذا بدأ يتحرك أمام عينى، وظننت أن الأرض تبتلعنى.

ومـــع ذلك، فيبدو أن هذا الانطباع يرجع إلى ما ألم بى من ضعف شديد، وقد غمرتنى فكرة وجودى فوق رمال تسوخ فيها الأقدام بشجاعة بالغة، شجاعة الهول، وبينما كنت أتألم، بلا

رحمة، بدأت أتابع زحفى ضد الموج بيدى العاريتين من اللحم، وبعد دقائق عشر من بداية الزحف حل بجسدى ما ألم به طيلة عشـــرة أيـــام: الآلام والجوع والعطش، تمددت، وأنا أحتضر، فـــوق الأرض الصلبة الباردة، وبقيت هناك لا أفكر فى شئ لا أوجه شكرا لأحد، ولا أعرب عن فرحتى لبلوغى بقوة العزيمة والأمل والرغبة الدائمة فى الحياة إلى جزء من شاطئ مجهول هادئ.

أثر لبشر:

إن أول مـــا تنطـــبع عليه نفس الإنسان فوق اليابسة هو الهدوء؛ فقبل أن يدرك أى شئ فوقها يجد نفسه وقد لفه سكون عظـــيم. ومـــا هى إلا لحظة بعيدة وحزينة، حتى يحس المرء بعدهـــا ضربات الأمواج ترتطم بالساحل، يتلوها سماع همس النسيم بين نخيل الجوز الهندى، مما يعطيه انطباعا بأنه يتواجد فـــوق الأرض حقا، كما يعطيه انطباعا بنجاته، رغم جهله بأى مكان من العالم هو.

وعندما أدركتنى حواسى مرة أخرى، وأنا أضطجع فوق الشاطئ، أخذت أتفحص المكان فوجدته طبيعة فظة، وبالفطرة وجدتنى أبحث عن أثر لأحد من البشر، فعثرت عليه قريبا من سلك شائك على مسافة تقرب من عشرين مترا من المكان الذى كنت فيه. رأيت هناك طريقا ضيقا متعرجا به آثار لأقدام بعض

الحـــيوانات. وبجانـــب الطريق كانت هناك قشور ممزقة لثمار جوز الهند. وقد أصبح ذلك الأثر البسيط الموحى بوجود إنسان بهـــذا المكـــان، وفى تلك اللحظة بالذات، يمثل بالنسبة لى أثرا كاشـــفا. وفـــى سعادة لا حدود لها، وضعت خدى على الرمل البارد ثم بدأت أنتظر.

انـــتظرت ما يقرب من عشر دقائق، وبدأت أستعيد قواى شـــيئا فشـــيئا، كانت الساعة قد تجاوزت السادسة والشمس قد طلعت بتمامها. وبجانب الطريق بين قشور ثمرة الجوز الهندى الممـــزقة، كانـــت هناك ثمار عديدة وصحيحة، زحفت نحوها، اتكـــأت علـــى جـــذع ثم ضغطت الثمرة الملساء التى يصعب اخـــتراقها بيـــن ركبتى. ومثلما فعلت بالسمكة قبل خمسة أيام، أخذت أفتش فى شوق عن أجزائها الغضة. وفى كل مرة أدرت فيها ثمرة الجوز الهندى كنت أحس خرير الماء داخلها. فزادنى ذلـــك الصـــوت الحلقى العميق إحساسا جديدا بالعطش، أصاب الألم معدتى، وأخذت أصابعى، التى تعرت من الجلد تخفق من الألم فى بطء وعمق. وأثناء العشرة أيام التى قضيتها فى البحر لم أكن أتصور فى أى لحظة أننى سأصاب بالجنون. غير أننى تصـــورت ذلك - ولأول مرة - فى هذا الصباح عندما أخذت أديـــر ثمرة الجوز الهندى بحثا عن ثغرة أنفذ منها إلى داخلها، وأحسست بين يدى خرير الماء البارد النظيف صعب المنال.

إن لـــثمرة الجوز الهندى ثلاث عيون فى أعلاها، مرتبة فـــى شكل مثلث، ولكن لابد من إزالة قشرتها بسكين حتى يتم

العثور عليها، وما كنت أملك سوى المفاتيح، وقد ألححت عدة مرات، دون جدوى، نزع القشرة الصلبة الخشنة بالمفاتيح، وفى نهاية الأمر سلمت بهزيمتى، وألقيت بالثمرة فى غيظ، وأنا أسمع لارتداد الماء داخلها.

كان الطريق هو آخر أمل لى، فهناك، بجانبى، كانت قشور ثمار الجوز الهندى المفتتة ترشدنى إلى أن هناك شخصا ما قد أتى بغية إسقاطها، كما أن البقايا تدل على أن هناك من يتردد يوميا على هذا المكان، يتسلق أشجار الجوز الهندى ثم ينكب على تقشير الثمار، وكذلك فإن هذا كله من شأنه أن يدل على وجودى بمكان قريب من منطقة آهلة بالسكان، فلا أحد يقطع مسافة طويلة من أجل أن يعود فقط بحمل من ثمار الجوز الهندى.

كنت أفكر فى مثل هذه الأمور، مستلقيا فوق جذع، عندما سمعت، من مكان بعيد، نباح كلب، فتأهبت للأمر، وأرهفت حواسى، وما هى إلا لحظة تمر حتى طرق سمعى طنين واضح لمادة معدنية تقترب على الطريق.

كانت فتاة سوداء، نحيلة، شابة، ترتدى ثيابا بيضاء، تحمل فوق رأسها حلة صغيرة من الألومنيوم لم يحكم غطاؤها، فأخذت تحدث صوتا مع كل خطوة تخطوها. "فى أى بلد أنا؟" سألت نفسى، بينما كنت أرقب تلك الفتاة السوداء تقترب من الطريق تبدو فى هيئتها كفتيات جامايكا. وهنا تذكرت سان

أندرس وبرفيدينثيا، تذكرت جزر لاس أنتياس كلها، كانت تلك المـــرأة بالنسبة لي فرصتي الأولى، ولكن من الممكن أن تكون الأخـــيرة، هـــل تفهم اللغة الإسبانية؟" سألت نفسي، بينما كنت أحاول التعرف على ملامح وجه الفتاة اللاهية التي كانت، وهي لا تـــراني، تجـــر خفهـــا الجلدي المغير على الطريق. تملكني اليأس لخوفي من ضياع الفرصة، وقد طرأت على ذهني فكرة لامعقولـــة مفادهـــا أنـــني لـــو حادثتها بالإسبانية فلن تفهمني، وستتركني هناك، ملقى على حافة الطريق.

– هاللو، هاللو !– قلت لها، في ضيق.

عـــادت الفـــتاة تـــنظر إلي بعينين واسعتين، بيضاوين، يملؤهما الفزع.

– هلب مي!– صحت، مقتنعا بأنها تفهم ما أقول.

تـــرددت للحظـــة، نظـــرت حولها ثم انطلقت تعدو فوق الطريق، وقد أصابها من الفزع ما أصابها.

الرجل والحمار والكلب:

أحسســـت بأنني أموت كمدا، وفي لحظة رأيتني في ذلك المكـــان، ميتا، وقد مزقتني ذرق الدجاج، غير أنني عدت، بعد ذلـــك، أســـمع نباح الكلب، يقترب أكثر فأكثر، وبدأ قلبي يخفق كلمـــا اقـــترب نباح الكلب. اتكأت على كفي، رفعت رأسي ،

انتظرت دقيقة، دقيقتين، ونباح الكلب يسمع أكثر فأكثر، وفجأة لـــم يتــبقَ هـــناك سوى السكون، سوى خرير الماء، وصرير الرياح بين أشجار الجوز الهندى، وعقب ذلك، وفى لحظة من أطـــول اللحظـــات التى أتذكرها فى حياتى، ظهر كلب هزيل، يتــبعه حمار عليه سلتين، وخلفهما رجل أبيض، شاحب، يضع فـــوق رأســـه قبعة من مخلفات القصب، يرتدى سروالا شمره حتى ركبتيه، ويحمل بندقية خفيفة على ظهره.

وبمجـــرد أن ظهـــر فـــى منعطف الطريق نظر إلىّ فى دهشـــة، ثـــم توقف. اقترب الكلب منى يشمنى، وقد رفع ذيله مستقيما. ظل الرجل مكانه لا يتحرك، صامتا، وبعد ذلك أنزل البندقية، ثم أسند مؤخرتها على الأرض وظل يرقبنى.

لا أدرى لمـــاذا تصورت أننى موجود فى أى مكان من الكاريبى عدا أن يكون كولومبيا. ودون يقين منى بأنه سيفهمنى قررت أن أتحدث إليه بالإسبانية:

- سيدى، ساعدنى - قلت له.

لـــم يجبـــنى فى الحال، ظل صامتا يتفحصنى فى حيرة، ودون أن يغمـــض له جفن، وقد أسند بندقيته على الأرض. إن الشـــىء الوحيد الذى ينقصنى الآن هو أن يرمينى بطلقة، كنت أفكـــر فى هذا بلا مبالاة، كان الكلب يلعق وجهى، إلا أننى لم أعد أقوى على أن أبعده عنى.

- ساعدنى - كررت ذلك فى قلق ويأس، وكلى ثقة بأن الرجل لا يفهمنى.

- ماذا حدث لك؟- سألنى بلغة لطيفة.

وما إن سمعت صوت الرجل حتى أدركت أن رغبتى فى روايــة مــا حــدث لــى قد أصبحت تؤلمنى أكثر من الجوع والعطــش والقنوط. قلت له دون أن أتنفس، وكلماتى فى حلقى تكاد تخنقنى:

- أنا لويس أليخاندرو بيلاسكو، أحد البحارة الذين سقطوا، يوم الثامــن والعشــرين من فبراير، من فوق المدمرة "كالداس" التابعة لسلاح البحرية الوطنى.

كنــت أظن أن العالم أجمع قد علم بالخبر؛ فاعتقدت أننى مــا أن أذكر اسمى أمام الرجل حتى يهب لمساعدتى، ومع هذا فما تأثر بما سمع، ظل فى نفس المكان، يرقبنى، دون أن يبدى اهتماما حتى بالكلب، الذى أخذ يلعق ركبتى المجروحة.

- أأنــت بحــار دجاج؟- سألنى، ولعله يفكر فى سفن ملاحة السواحل التى تتجر بالخنازير وطيور الحظائر.

- لا، إننى بحار حربى.

وفــى هــذا الوقت فقط تحرك الرجل، حمل بندقيته من جديد، ثم أزاح قبعته إلى الخلف، وقال لى: "سأقوم بحمل سلك

شـــائك حالا إلى الميناء ثم أعود إلى حضرتك". وهنا أحسست بالفرصة الثانية تفلت من يدى "أمن المؤكد أنك ستعود؟ قلت له بصـــوت علته نبرة الرجاء. أجاب الرجل بأنه سيعود. سيعود بكل تأكيد. ابتسم إلىّ فى لطف ثم استأنف سيرة خلف الحمار، وظـــل الكلـــب بجوارى يشمنى، وعندما ابتعد الرجل رأيت أن أسأله، فى صوت علته نبرة الصياح:

- أى بلد هذا؟

فأجابـــنى فـــى تلقائية عجيبة بالرد الوحيد الذى لم أكن أنتظره فى تلك اللحظة:

- إنه كولومبيا.

الفصل الثالث عشر

ستمائة شخص يقودوننى إلى سان خوان

عاد الرجل كما وعد، وقبل أن أتهيأ لانتظاره - حيث لم يكـد يمـر على رحيله سوى خمس عشرة دقيقة- عاد ومعه الحمـار والسلتين فارغتين، تصحبه الفتاة السوداء صاحبة حلة الألومنيوم وزوجته، وهو ما علمت به لاحقا. الكلب لم يتحرك مـن جانبى. وهاهو قد أحجم عن لعق وجهى وجروحى، وما عـاد يشمنى. رقد بجوارى، ساكنا، بين اليقظة والنوم، إلى أن شاهد الحمار يقترب، وهنا قفز ثم بدأ يهز ذيله.

- ألا تستطيع المشى؟ - سألنى الرجل.

- قلت له: سأرى ذلك - حاولت الوقوف على قدمى غير أننى انكفـأت على وجهى. "لن تستطيع" قال الرجل وهو يحاول أن يمنعنى السقوط على الأرض.

أقعدنى هو وزوجته فوق ظهر الحمار. تأبطانى، ثم حثا الحمار على المسير، أما الكلب فقد سار أمامنا يقفز إلى أعلى.

كانـت ثمـار الجوز الهندى تملأ الطريق، ولقد تحملت العطـش فوق سطح البحر. أما هنا، فوق ظهر الحمار، أقطع الطريق الملتوى الضيق، الذى تطوقه أشجار الجوز الهندى، فقد شـعرت بعدم قدرتى على أن أحتمل أكثر من ذلك، فطلبت من

الرجل أن يعطيني ماء ثمرة الجوز الهندى.

- لا أملك سكينا - قال الرجل.

لكنه لم يكن ينطق بما هو حق؛ فقد كان يحمل فى نطاقه سكينا، ولو كنت فى ظروف تسمح لى بالدفاع عن نفسى فى تلك اللحظة لانتزعت منه السكين عنوة، وأزحت قشرة ثمرة الجوز الهندى عنها ثم أكلتها عن آخرها.

وقد أدركت، بعد ذلك، سبب رفض الرجل تقديم ماء ثمرة الجوز الهندى لى؛ حيث إنه قد ذهب إلى بيته الواقع على مسافة كيلو مترين من المكان الذى عثر علىّ فيه، وتحدث إلى الناس هناك، فحذروه من أن يقدم لى أى طعام قبل أن يرانى الطبيب، وكان أقرب طبيب يوجد فى مكان على مسيرة يومين فى سان خوان دى أورابا[١٢].

وقبل نصف ساعة وصلنا إلى البيت: بناية بدائية من الخشب، وسقف من الزنك، يوجد على أحد جانبى الطريق، وجدنا به ثلاثة رجال وامرأتين. مد الجميع يد العون لى فأنزلونى من فوق ظهر الحمار، ثم اقتادونى إلى حجرة النوم وأسكنونى سريرا من نسيج الكتان. ذهبت إحدى المرأتين إلى المطبخ، فأحضرت حلة صغيرة بها ماء قرفة تغلى، ثم جلست على حافة السرير، وأخذت تسقينيها بالملعقة، وشعرت، بعد أن تناولت الجرعات الأولى، بجزع شديد. ولما تناولت الجرعات الثانية أحسست

بالنشـــاط يـــدب فـــى جسدى. وهنا، لم أعد بحاجة إلى مزيد من الجرعات، وإنما أنا بحاجة إلى أن أسرد ما حدث لى.

لـــم يكـــن أحد يعلم بالحادث؛ فحاولت أن أشرح لهم، أن أروى لهـــم القصة كاملة حتى يعلموا كيف أنقذت نفسى، وكم كنت أعتقد أن أنباء الكارثة قد تواترت فى أى مكان من العالم يمكنـــنى الوصول إليه، ولكننى أصبت بخيبة أمل عندما أيقنت خطـــأ ظنونى، ومازالت السيدة تسقنى جرعات من ماء القرفة كما لو كنت طفلا عليلا.

ألححـــت عـــدة مـــرات فى أن أقص ما وقع لى، إلا أن الرجال الأربعة والمرأتين الأخريين ظلوا جالسين عند مؤخرة الســـرير لا يؤثر فيهم شئ، ينظرون إلىَّ، كما لو كنا فى حفلة تشـــريف. ولولا أننى أراهم ينظرون إلى فرحا لنجاتى من بين براثن أسماك القرش، ومن الأخطار العديدة التى كانت تتهددنى فى مياه البحر على مدى عشرة أيام، لظننت أن أولئك الرجال وتلك النسوة لا ينتمون إلى هذا الكوكب.

وتوارت الحكاية:

كانـــت السيدة التى تعهدت بسقايتى لطيفة للغاية، وعليه فمـــا سمحت بخلط من أى نوع؛ ففى كل مرة أحاول فيها سرد حكايتى كانت تقول لى:

- لتظل صامتا الآن، ولتحك لنا فيما بعد.

كنت على استعداد لأن ألتهم كل ما تصل إليه يدى؛ حيث وصـــل إلى حجرة النوم دخان يحمل رائحة طعام الغذاء قادما من المطبخ، إلا أن توسلاتى جميعها قد ذهبت سدى.

– فـــبعد أن يـــراك الطبيب سوف نقدم لك الطعام – هكذا كان ردهم علىّ.

لكـــن الطبيب لم يحضر، وكلما مرت عشر دقائق قدموا لى جرعات من ماء محلى بالسكر. أما صغرى النساء، الطفلة، فقد كانت تمسح جروحى بقماش مبلل بماء فاتر. كان اليوم يمر بطيـــئا، وشيئا فشيئا بدأت أشعر بالراحة، فقد كنت موقنا بأننى أتواجـــد بيـــن أناس أصدقاء، فلو أنهم قدموا إلى طعاما أسد به جوعـــتى بـــدلا مـــن جرعات الماء المحلى بالسكر، لما تحمل جسدى الصدمة.

كـــان الـــرجل الذى عثر علىَّ فى الطريق يدعى داماسو ايميتيلا. وفى العاشرة من صباح اليوم التاسع من شهر مارس، نفـــس الـــيوم الـــذى وصلت فيه إلى الشاطئ، سافر إلى قرية مولاتوس القريبة ثم عاد إلى المنزل الذى كنت فيه وبصحبته عديد من رجال الشرطة، الذين جهلوا بدورهم خبر الكارثة. فما كانـــت الصـــحف تصل إلى هناك، ولم يكن بالحانوت، المزود بمحـــرك كهربائى، سوى مذياع وثلاجة. وما كان أحد ينصت إلى الأخبار المرسلة عبر الإذاعة، وحسبما علمت فيما بعد، أنه بمجرد أن أبلغ داماسو ايميتيلا مفتش الشرطة بأنه قد عثر علىَّ

منهكا فى أحد الشواطئ وأننى أنتمى إلى طاقم المدمرة كالداس، حتى قام بإدارة المحرك وظل الناس ينصتون إلى المذياع رغبة منهم فى متابعة أية أخبار آتية من قرطاجنة، ولكن لم يكن ثمة خبر عن الحادث، سوى إشارة موجزة أذيعت فى ساعات الليل الأولـــى. وهنا، تحرك مفتش الشرطة وجميع رجاله، بالإضافة إلـــى ستين شخصا من أهل مولاتوس رغبة منهم فى تقديم يد العون لى. وهاهم يقتحمون البيت، بعد الثانية عشر ليلا بقليل ، فـــأيقظونى بأصواتهم. أيقظونى من الغفوة الوحيدة الهادئة التى تمكنت من مصالحتها على مدى الاثنى عشر يوما الأخيرة.

وقـــبل حلول الفجر امتلأ البيت بالناس؛ حيث تحرك كل ســـكان مولاتـــوس - رجالا ونساء وأطفالا - يبغون رؤيتى، وكـــان ذلـــك أول احتكاك لى بجمع من الفضوليين الذين ظلوا يلاحقوننى خلال الأيام التالية فى كل مكان. كان الناس يحملون مصابيح وبطاريات للإضاءة، وعندما بدأ مفتش الشرطة وجمع من رفاقه يحركوننى فى سريرى، أحسست بأنهم يشقون جلدى الذى أحرقته الشمس، لقد كانت جمهرة حقيقية.

كان الجو حارا، وشعرت بأننى أختنق وسط ذلك الحشد مـــن الوجـــوه الواقية، وما إن خرجت إلى الطريق حتى سلط الحاضـــرون عددا هائلا من المصابيح والبطاريات الكهربائية علـــى وجهـــى. أصـــبحت كـــالأعمى وسط كل تلك الهمسات والأوامـــر الصـــادرة فى صوت عال عن مفتش الشرطة، وما كنـــت أرى إلـــى أيـــن أتجه، ومنذ اليوم الذى هويت فيه من

المدمـــرة لم أكن أفعل شيئا سوى السفر فى اتجاه غير معلوم. وفـــى هذا الصباح تابعت المسير، دون أن أعلم من أين، ودون أن أتخـــيل حتى ما يمكن أن يفكر فيه هذا الحشد النشط الودود ليصنعه معى.

حكاية الفقير:

كـــان الفاصـــل بيـــن المكان الذى عثروا علىَّ فيه وبين مولاتـــوس طويـــلا وشـــاقا. وضعونى فوق سرير معلق فى خشـــبتين طويلتيـــن. وهنا وزع الرجال أنفسهم: اثنان فى كل طـــرف من كل واحدة من الخشبتين، حملونى فى طريق ضيق طويـــل ملـــتو، أضاءته عدة مصابيح، سرنا فى الهواء الطلق، غـــير أن الجـــو كـــان شديد الحرارة، كما لو كنا داخل حجرة مغلقة، وذلك بسبب المصابيح.

تناوب الناس على حمل السرير المعلق؛ ثمانية أفراد فى كـــل نصف ساعة، وفى تلك الأثناء كانوا يقدمون إلىَّ قليلا من المـــاء وقطعـــا من بقسماط الصودا، تمنيت أن أعرف إلى أين يُحملوننى، ماذا كانوا يفكرون بى صنعا، غير أن الكلام قد عم كـــل شـــئ هناك. تكلم الجميع إلا أنا. فما كان مفتش الشرطة، الـــذى خضع الكل لأوامره، ليسمح لأحد يقترب منى يحادثنى. دوت صـــياحات وتعلـــيقات وأوامر على مسافة بعيدة، وعندما بلغنا شارع مولاتوس الطويل لم يكن عدد رجال الشرطة كافيًا

لاحتواء الجماهير، كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحا.

إن مولاتـــوس قرية يقطنها الصيادون، ولا يوجد بها أى مكتب لاسلكى، وأقرب مدينة منها هى سان خوان دى أورابا(١٣) التى تصل إليها طائرة صغيرة مرتين فى كل أسبوع قادمة من مونتيريا(١٤). وعندما وصلنا إلى القرية ظننت أننى وصلت إلى مكان ذى بال. ظننت أننى سأجد هنأك أخبارا عن عائلتى، غير أننا فى مولاتوس نكاد نكون فى منتصف الطريق.

أنزلونى أحد البيوتات ووقف سكان القرية قاطبة يطلبون رؤيتى، وهنا تذكرت فقيرا رأيته منذ عامين فى بوجوتا، نظير مـــبلغ خمسين مليما، كان علىَّ أن أقف فى طابور طويل امتد لساعات عديدة حتى يصبح بمقدورى أن أرى الفقير، وما كان الواحد منا يتقدم سوى نصف المتر كل خمس عشرة دقيقة، وما أن يصـــل المـــرء إلـــى مكان الفقير، الموضوع فى صندوق زجاجى، حتى لا يجد فى نفسه رغبة فى رؤية أى إنسان. وكل مـــا يطلـــبه هو أن يخرج بأسرع ما يمكن حتى يحرك ساقيه، ويستنشق هواء نقيا.

الفـــرق الوحيد بينى وبين الفقير أنه كان موضوعا داخل صـــندوق زجاجى. وأمضى تسعة أيام دون أن يدخل طعام قط إلى جوفه، أما أنا فقد أمضيت عشرة أيام فى مياه البحر ويوما آخر طريح الفراش، فوق سرير بغرفة نوم فى قرية مولاتوس، ورأيت وجوها تمر أمامى، وجوها بيضاء وسوداء، وفى طابور لا ينـــتهى. كـــان الحر فظيعا، وهنا أحسست أننى قد استعدت

عافيــتى بدرجـــة كافية تجعلنى أمزح بعض الشيء وأن أتخيل وجود شخص بالباب هناك يبيع تذاكر خاصة لمشاهدة الغريق.

وفى نفس السرير المعلق الذى حملنى عليه الأهالى إلى مولاتــوس، حملــت إلى سان خوان دى أورايا أيضا، غير أن الحشد الذى رافقنى من قبل قد تضاعف الآن، فما كان يقل عن ســتمائة رجــل، هذا إلى جانب النساء والأطفال والحيوانات. بعضـــهم فضـــل الســـفر على ظهور الحمير، أما غالبيتهم فقد فضلوا السفر سيرا على الأقدام. استغرقت الرحلة يوما كاملا، وأحسســـت، حيـــن حملنى هذا الحشد، حشد مكون من ستمائة رجـــل يتـــناوبون على حملى على طول الطريق، بأننى استرد عافيـــتى رويـــدا رويدا. أظن أن قرية مولاتوس قد خلت من أهلهـــا؛ فمـــنذ ســـاعات الصـــبح الأولـــى بدأ تشغيل المحرك الكهربائى وانطلقت الموسيقى عبر المذياع تملأ جنبات القرية، وبـــدا الأمـــر كمهـــرجان شعبى، كنت أنا مركزه والدافع إليه، وبقيـــت مضطجعا فوق السرير، والقرية قد اصطفت عن بكرة أبـــيها أملا فى التعرف علىّ، وهذا الجمع بعينه هو الذى وقف حائلا أمام ذهابى بمفردى إلى سان خوان دى أورايا، ولكن فى قافلة طويلة شغلت اتساع ذلك الطريق صعب التضاريس.

وخلال الرحلة أحسست بالجوع والعطش، ورغم أن قطع بســـكويت الصـــودا قـــد أقامـــت أودى، إلا أنها أثارت عندى غريـــزتى الجوع والعطش. وما إن دخلنا إلى سان خوان حتى

تذكرت الأعياد الشعبية فى القرى، فقد خرج كل سكان المدينة الصـــغيرة الحالمـــة، التى تلهبها رياح البحر بسياطها، يرجون لقائى، وتم اتخاذ الإجراءات اللازمة لدفع المتطفلين، كما تمكن رجـــال الشرطة من إيقاف الجموع التى تزاحمت فى الشوارع حتى ترانى.

فـــى هـــذه المديـــنة كانت نهايةٍ رحلتى، أجرى الدكتور أومـــبرتو جوميـــث فحصا طبيا دقيقًا لحالتى، فهو أول طبيب أعرض عليه، وبعد أن فرغ من فحصه زف إلى خبرا عظيما، ولم يشأ أن يخبرنى به قبل أن ينتهى من فحصى حتى يتأكد من أنـــنى أصبحت فى حالة تسمح لى بأن أتحمله، ربت بكفه على خدى، ابتسم فى لطف، ثم قال لى:

– الطائـــرة معدة لحملك إلى قرطاجنة، وهناك ستكون عائلتك فى انتظارك.

الفصل الرابع عشر

البطولة هى عدم الاستسلام للموت

لم أكن أتصور مطلقا أن المرء يتحول إلى بطل لمجرد أنه قضى عشرة أيام فى زورق، محتملا الجوع والعطش، وما كان بمقدورى أن أقوم بعمل غير هذا، ولو كان الزورق مزودا بالماء والبقسماط المضغوط، وبوصلة وأدوات للصيد، فمن المؤكد أننى كنت سأعيش حياة مثل التى أحياها الآن. غير أن هناك فرقا واضحا: لن أعامل معاملة البطل، وعليه، فإن البطولة، فى مثل حالتى، تكمن فقط فى أننى لم أستسلم للموت جوعا وعطشا على مدى عشرة أيام.

وأنا لم أبذل أى مجهود حتى أصبح بطلا، فكل جهودى المبذولة كانت من أجل أن أنقذ حياتى، ولكن بما أن نجاتى هذه قد أتت تحيطها هالة كبيرة، حاملة عنوان البطولة المدوى، فلم يعد أمامى سوى تقبلها بكل ما أتت به تحمله، بالبطولة وككل شئ.

إن البعض يسألنى عن شعور البطل، وأنا لا أدرى أبدا بماذا أجيب. فمن ناحيتى، أشعر بما كنت أحسه من قبل، وما تغيرت فى ظاهرى أو باطنى، وما عادت حروق الشمس تؤلمنى. وهاهو جرح الركبة قد اندمل، وها أنا مرة أخرى لويس أليخاندرو بيلاسكو، وهذا يكفينى.

أمـــا الـــناس فهم الذين تغيروا؛ فهاهم أصدقائى يوثقون صداقتهم بى أكثر من ذى قبل، كما أتصور أن أعدائى قد زادوا فى عداوتهم لى، رغم أننى لا أعرف لى أعداء فيما أزعم، وما إن يتعرف بى أحد المارة بالشارع حتى يظل ينظر إلىّ كما لو كنت حيوانا غريبا، ولهذا فأنا أرتدى ثيابا مدنية إلى حين ينسى الـــناس أننى قد أمضيت عشرة أيام فوق زورق دون طعام أو شراب.

وأول مـــا يشـــعر به المرء، عندما يتحول إلى شخصية مهمة، هو أن الناس تتشرح صدرا لحديثه، ويعجبها أن يتحدث عـــن نفسه أثناء الليل والنهار، وفى أى مناسبة من المناسبات. وقـــد تبينـــت هذا الأمر عندما كنت نزيلا بمستشفى قرطاجنة الـــبحرى؛ حيـــث عينوا شرطيا كلف بمنع أى شخص من أن يجـــرى حديثا معى، وبعد ثلاثة أيام أحسست أننى قد استعدت عافيتى، إلا أننى لم أتمكن من مغادرة المستشفى. فقد كنت على دراية بأنه عندما يصرحون لى بالخروج يتعين علىّ أن أروى الحكايـــة للعـــالم أجمع، وذلك أننى - كما أخبرنى الحرس - تسببت فى وصول صحفيين من مختلف أرجاء البلد إلى المدينة ليعدوا مقالاتهم وليلتقطوا لى بعض الصور. وقد قام أحدهم، له شـــارب أخـــاذ، يصل فى طوله إلى عشرين سنتيمترا، بالتقاط أكـــثر من خمسين صورة لى، ولكنه لم يعط الإذن ليسألنى عن أى شئ يتعلق بمغامرتى.

وآخـــر، أكثر جرأة، تخفى فى زى طبيب، خدع الحرسٍ ثـــم تسـلل إلـــى حجــرتى، وقد حقق بعمله هذا نصرًا زائغا ومستحقًا، غير أنه قضى وقتا سيئا.

قصة ريبورتاج:

لم يكن أحد يتمكن من الدخول إلى حجرتى سوى والدى والحــرس والأطــباء وممرضو المستشفى البحرى، وذات يوم دخـــل طبيـــب لـــم أره من قبل على الإطلاق. كان فى ريعان شبابه، يرتدى معطفه الأبيض، ونظارته وسماعته الطبية تتدلى من عنقه، دخل فى غير موعد الأطباء، دون أن ينبس بكلمة.

نظر إليه ضابط صف الحراسة فى حيرة، وطلب منه أن يخـــرج بطاقته الشخصية، فتش الشاب كل جيوبه، بهت بعض الشـــىء ثـــم قال إنه قد نسى أوراقه، وهنا، أنذره ضابط صف الحراســـة بأنـــه لن يتمكن من إجراء حوار معى دون إذن من مديـــر المستشـــفى مما جعلهما يتوجهان معا إلى المدير، وبعد عشر دقائق عادا إلى غرفتى.

دخـــل ضـــابط صـــف الحراسة فى المقدمة ثم وجه إلىّ تحذيرا: إنهم أعطوه تصريحا بفحصك لمدة خمس عشرة دقيقة؛ فهـــو طبيب نفسانى جاء من بوجوتا، رغم أنه يبدو لى صحفيا متخفيا.

– ولماذا يبدو لك؟– سألته.

- لأنـــه فـــى حالة زعر شديد، هذا بالإضافة إلى أن الأطباء النفسيين لا يستخدمون سماعة طبية.

ورغم كل هذا، فقد تحادث مع مدير المستشفى على مدى خمس عشرة دقيقة، تحدثا عن الطب، الطب النفسى، تحدثا بلغة المصطلحات الطبية شديدة التعقيد، ثم توصلا إلى اتفاق عاجل، ولهـــذا فقـــد أذنوا له بأن يتحدث معى على مدى خمس عشرة دقيقة.

لا أدرى إذا كـــان ذلـــك بسبب التحذير الذى وجهه إلى ضابط صف الحراسة أم لا، إلا أنه عندما دخل الطبيب الشاب مـــرة أخـــرى إلى حجرتى بدا لى أنه شئ آخر غير أن يكون طبيـــبا. ومـــا كانت تبدو على وجهه ملامح المخبر الصحفى أيضـــا، رغـــم أنـــنى ما شاهدت مخبرا صحفيا قط حتى هذه اللحظـــة، بدا له أنه قسيس تخفى فى زى طبيب، وأظن أنه لم يكـــن يـــدرى من أين يبدأ، إلا أن ما حدث بالفعل هو أنه كان يفكر فى طريقة يبعد بها ضابط صف الحراسة.

- من فضلك، أحضر لى ورقة- قال له.

كان الطبيب يظن أن ضابط صف الحراسة سوف يذهب إلـــى المكتـــب لإحضـــار الورقة، ولكنه قد تلقى تعليمات بعدم تـــركى وحيدا ولهذا فلم يذهب بحثا عن الورقة، بل خرج إلى الممر ثم صاح قائلا:

- اسمع، أحضر ورقة للكتابة حالا.

ومـــا هى إلا لحظة حتى أتى ورق الكتابة. مضى أكثر مـــن خمس دقائق دون أن يسألنى الطبيب عن شئ قط. وما إن وصـــل الـــورق حتى بدأ يفحصنى. قدم الورق إلىّ طالبا رسم ســـفينة، رســـمت الســـفينة، فطلب منى أن أوقع على الرسم، ففعلـــت، ثـــم طلب منى بعد ذلك أن أرسم منزلا ريفيا فرسمت المـــنزل فـــى أبهـــى صـــورة ممكنة، وبجواره مجموعة من شـــجيرات المـــوز، طلب منى التوقيع عليها، وهنا أدركت أنه مخبر صحفى متنكر، إلا أنه أصر على أنه يمتهن الطب.

ومـــا إن فرغت من الرسم حتى تفحص الأوراق، وتفوه بكلمات غامضة ثم بدأ يسألنى عن مغامرتى. وهنا تدخل ضابط صف الحراسة مذكرا إياه بأن مثل هذه الأسئلة لم يعط بها إذنا. وعلـــيه فقـــد بدأ بفحص جسدى كما يفعل الأطباء، كانت يداه باردتيـــن، ولو أن ضابط صف الحراسة قد قام بلمسهما لطرده مـــن الغـــرفة، إلا أننى لم أقل شيئا حيث عصبيته وإمكانية أن يكـــون مخبرا صحفيا كان أمرا طريفا بالنسبة لى، وقبل انتهاء مـــدة الإذن المحـــددة بخمـــس عشرة دقيقة خرج منطلقا يحمل الرسومات فى يده.

يالهول ما حدث فى اليوم التالى، فقد ظهرت الرسومات فى الصفحة الأولى لجريدة "الييتيمبو"[١٥] بأسهم ولافتات، "وهنا

كنــت أنا"، تقول إحدى اللافتات. وهاك سهم يشير إلى سطح السـفينة. إنــه عيــن الخطأ، فما كنت فوق سطحها، وإنما فى المؤخرة، إلا أن الرسومات كانت تحمل توقيعى.

أمرنى البعض بإعادة تصحيح هذه المعلومات، وبأنه فى مقــدورى أن أرفع دعوى ضد الجريدة، إلا أن ذلك قد بدا لى أمرا غير معقول. وقد أحسست إعجابا شديدا تجاه ذلك المخبر الصحفى الذى تنكر فى زى طبيب كى يتمكن من الدخول إلى المستشــفى العســكرى، ولو أنه تمكن من العثور على طريقة يفصــح لــى بهــا عن هويته لعرفت كيف أبعد ضابط صف الحراســة؛ إذ كــان بحوزتى حقا فى هذا اليوم تصريح برواية القصة.

استثمار القصة:

كــان للمغامــرة التى قام بها الصحفى المتنكر فى زى طبيــب الفضل فى أن أعرف بوضوح مدى الاهتمام الذى أبداه الصــحفيون بــتلك الأيام العشرة التى قضيتها فوق سطح مياه الــبحر. لقــد كانت محل اهتمام الدنيا بأسرها، وقد طلب منى رفــاقى أن أرويهــا عدة مرات، ولما عدت إلى بوجوتا- حين اســتعدت عافيــتى كاملة- أدركت أن حياتى قد تغيرت. فهاهم يستقبلوننى فى المطار بكل أنواع التشريفات، كما قلدنى رئيس الجمهوريــة نيشــانا، وهــنأنى على بطولتى. ومنذ ذلك اليوم

أدركــت أننى سأواصل عملى فى سلاح البحرية، ولكن بدرجة معلم هذه المرة.

وإلــى جانــب ذلــك كله، كان هناك أمر لم أضعه فى اعتبارى: إنها عروض شركات الدعاية، ولكم أنا ممتن لساعتى الــتى ظلت تعمل بدقة متناهية طيلة زمن مغامرتى. إلا أنه لم يــدر بخلدى أن مثل هذا الأمر سيعد بمثابة خدمة جليلة اسديها لمن يقومون على أمر صناعة الساعات. ومع هذا، فقد أهدونى خمسمائة دولار وساعة جديدة، ثم أعطونى ألف دولار لمجرد أن قمــت بمضــغ نوع معين من اللادن وأعلنت عنه- وهاهو الحــظ قــد ساق إلىَّ مبلغ ألفى بيزو من القائمين على صناعة الأحذية التى من نوع ما كنت أرتديه، بعد أن صرحت عنها فى إعلان آخر. وها أنا قد حصلت على خمسة آلاف أخرى مقابل إذنى لهم برواية قصتى عبر الإذاعة، وما كنت أتصور قط أن مجــرد حــياة الإنسان لعشرة أيام فوق سطح مياه البحر يكايد الجوع والعطش، يعد من الأعمال المربحة، إلا أنه كان بالفعل مربحا: فقد تلقيت حتى الآن أكثر من عشرة آلاف بيزو، ورغم هذا، فلن أكرر المغامرة ولو حصلت على مليون.

إن حياتى كبطل لا تتمتع بخصوصية تذكر، فأنا أستيقظ فــى العاشــرة صــباحا، أذهــب إلى أحد المقاهى أتحدث إلى أصــدقائى، أو إلى إحدى شركات الدعاية التى مازالت تستغل مغامــرتى فــيما تعــده من إعلانات. وأكاد أذهب إلى السينما

يومــيا، فـــى صحبة واحدة من بنات حواء، ليس بمقدورى أن أفصح عن اسمها لأنه يعد سرا من أسرار التحقيق التحضيرى.

بــدأت أتلقى رسائل يومية من كل الأرجاء؛ رسائل من أنـــاس لا أعــرفهم وهـــذه رسالة وصلتنى من بيرير، موقعة بالأحــرف الأولـــى J.V.C، عبارة عن قصيدة شعرية طويلة مــزودة برســومات عن الزوارق وطيور النورس، أما مارى أدرس، الـــتى أقامت صلوات من أجل أن تستريح روحى بينما كنـــت وســط مياه الكاريبى داخل الزورق، فتكتب إلىَّ بصفة مستمرة، كما أرسلت إلىَّ صورة عليها إهداء يعرفه القراء.

لقــد رويــت قصـــتى على شاشة التلفاز، وعبر برامج الإذاعة، كما أننى أذعتها على أسماع أصدقائى، ورويتها لسيدة أرمـــل عجـــوز تملك ألبوما كبيرا، بعد أن دعتنى إلى منزلها. وبعـــض الناس يقولون لى: ما هذه القصة إلا اختلاق عجيب، وأنـــا بدورى أسألهم: إذن، ماذا كنت أفعل طيلة الأيام العشرة التى قضيتها وسط مياه البحر؟

الخاتمة

شرح بعض المفردات الواردة بالترجمة

١. منطقة فى كولومبيا، يمر بها نهر كبير يسمى نهر أراكاتاكا.

٢. إحدى دول أمريكا الجنوبية، وتقع فى شمال غرب القارة بين الكاريـــبى والمحيط الهادى، دخلها الإسبان فى عام ١٥٢٥م وظلـــوا بهـــا حـــتى نالـــت استقلالها اتحاديا مع الأكوادور وفنزويلا وبنما على أيدى سيمون بوليفار عام ١٨١٩، وفى عام ١٩١٤ استقلت عن الاتحاد وعرفت باسم كولومبيا.

٣. جـــريدة كولومبية عمل بها المؤلف، وتعنى هذه الكلمة فى الإسبانية "المشاهد".

٤. عاصـــمة كولومبـــيا، وهى عبارة عن هضاب على ارتفاع ٢٦٤٥ مـــترا، بهـــا حديقة للنباتات تعد من أعظم الحدائق النباتية فى العالم.

٥. هو الاسم الذى أطلقه رفاقه عليها، وهو ترجمة حرفية للاسم من الإنجليزية.

٦. عاصـــمة إقليم خايين بإسبانيا، تبلغ مساحتها ٦٣٣٥ هكتار، وتشتهر بزراعة الحبوب والزيتون وتربية الماشية.

٧. مدينـــة فـــى وســط كولومبيا تبلغ مساحتها ٢٣٥٦٢ ك.م وتشتهر بزراعة قصب السكر والأرز.

٨. مدينة بكولومبيا، تقع على ساحلها الغربى من المحيط الهادى وحـــتى الكاريبى، تكثر بها الأمطار، وتتمتع بثروة معدنية عظيمة أهمها الذهب والبلاتين.

٩. إحدى دول أمريكا الوسطى، فتحها الإسبان عام ١٤٩٢.

١٠. البيزو: هو العملة الرسمية للعديد من دول أمريكا الجنوبية مثل الأرجنتين وكوبا والمكسيك وأوروجواى وكولومبيا.

١١. علامة من العلامات الموجودة فى السماء، تتكون من عدة نجوم، يهتدى بها السائر ليلا.

١٢-١٣. مدينة فى شمال شرق كولومبيا.

١٤. مديـــنة بشمال غرب كولومبيا، وهى عاصمة إقليم قرطبة بجوار نهر سينو.

١٥. اسم جريدة كولومبية، وهى عاصمة إقليم ريسارالدا، ومن أهم مراكز إنتاج البن، وصناعة المنسوجات والأغذية.

الفهرس

(إدارة المطبوعات والنشر ٢٣٧٦٢/١/١/٢٠٠١/١٠٠٠ نسخة)

Gabriel Garcia Marquez

RELATO DE UN NAUFRAGO

تدور هذه الرواية حول حكاية غريق أمضى عشرة أيام عائمًا على متن زورق ، دون طعام أو شراب ، ونصب بطلاً قوميًا ، ثم تهاوت عليه قُبلات ملكات الجمال ، فأصبح ثريًا بفضل ما قام بتصويره من إعلانات ، وفى النهاية أصبح مكروهًا من قِبَل الحكومة ، ثم طوته ستائر النسيان إلى الأبد .

وعقب نشر تفاصيل الحكاية تفجرت الفضيحة ، حيث كان الفوز والتكريم والثروة من نصيب الغريق . أما الصحفى الذى أخذ على عاتقه جمع أطراف الحكاية ، فقد كان مصيره النفى والتشريد ، وفى تلك الأثناء كان جابرييل جارثيا ماركيث يترقب منحه جائزة نوبل للآداب ، وهى أكبر جائز يمكن أن تمنح لكاتب له نفس مكانته وشعبيته .

وها هو الروائى الإسبانى الشهير ميجيل ديليبس يعلق على العمل الذى بين أيدينا ، فيقول : « إن الطريقة التى اعتمدها الكاتب فى سرد حكايته تفيض حيوية وقوة أصابتنى بالدوار ، هذا أمر لم يحدث لى قط ـ فيما أذكر ـ وأنا أتصفح كتابًا غير هذا » .